رواية

قمر

مصطفى المفتي

Scanned by TapScanner

قمـــر

لا يجوز نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو نسخ مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو بطريقة إلكترونية أو بالتصوير أو ترجمته إلى أية لغة أخرى دون الحصول على موافقة الناشر والمؤلف مقدمًا.

All Rights Reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording, or otherwise, without the prior written permission of Bibliomania Ltd.

❖ **الكتاب: قمر**

❖ **المؤلف: مصطفى المفتي**

❖ **نوع العمل: رواية**

❖ **الطبعة الأولى 1442 هـ - 2021 م - القاهرة**

❖ **الناشر: ببلومانيا للنشر والتوزيع – مصر**

❖ **رقم الإيداع: 4977 / 2021**

❖ **الترقيم الدولي ISBN: 978 – 977 – 994 - 040 - 5**

❖ **الرقم الكودي في ببلومانيا: bl00478**

❖ **مراجعة لغوية وتدقيق: ببلومانيا**

❖ **الغلاف: طلال عبد الجبار الحسيني**

❖ **التنسيق الداخلي: ببلومانيا**

❖ مدير عام: جمال سليمان - مدير إداري: ديانا حمزة – مدير تنفيذي: محمد جلال

❖ العنوان: عنوان (1): 15 شارع السباق – مول الميريلاند – مصر الجديدة

عنوان (2): 29 شارع الكمال – الأميرية – القاهرة

❖ تليفاكس: 002026337855 - 002026064518

❖ محمول: 00201208868826 – 00201030504636 – 00201210826415

❖ صفحة الدار على موقع فيسبوك: https://www.facebook.com/bibliomania.eg/

❖ الموقع الإلكتروني: www.bibliomaniapublishing.com

كل ما ورد في هذا الكتاب من أخبار وأحداث وآراء يعبر فقط عن رأي الكاتب، ولا يعبر بالضرورة عن رأي الناشر، ودون أدنى مسؤولية على دار ببلومانيا للنشر والتوزيع

/bibliomania.eg

جميع الحقوق محفوظة ©

قمر

رواية

مصطفى المفتي

ببلومانيا للنشر والتوزيع
BIBLIOMANIA PUBLISHINGS

www.bibliomaniapublishing.com

2021

جميع الحقوق محفوظة ©

إلى حلا الحسيني دائما...

لا تكن مثل سويقة "بامبو"، أين ما ألقوكَ تنبت..

اجعل لنفسك وطناً وجذور، يعيش فيكَ كما تعيش فيهِ...

وإن أُجبرتَ يوماً على هجرتهِ، القِ بذورك على حدوده ليُخرج نبتاً يزين أسواره بدلاً من سياجٍ يخنقكَ حين العودة.

مصطفى المفتي

الإهداء...

إلى وطني الذي أُخرجتُ منهُ عنوةً فحملتهُ على ظهري أقاتل به أنياب غربةٍ لا ذنب لي فيها.

إلى أبناء وطني الحبيب، إلى كل مشرد وكل مغيبٍ في غياهب السجون، لكل شهيد وكل أم ولكل دمعة أب...

إلى من علمني الحياة، الحب، التسامح... والدي العزيز لروحك السلام.

إلى أمي التي زرعت عند فمي الريحان فنبتَ حروفاً تشنق أصابعي حين أكتبها.

إلى زوجتي وأبنائي... أخوتي وأخواتي الذين شتتهم الحرب في شرق الدنيا وغربها..

لكل لاجئ وغائب ومفقود لا ذنب لهم إلا أنهم أبناء وطني...

إليكم أنتم أهدي كتابي هذا...

مصطفى المفتي

تنويه...

جميع أحداث هذه الرواية حقيقية، حصلت معي ومعك ومعهُ، ومع كل مواطن سوري.

جميع هذه الأحداث تمتُّ للواقع بصلةٍ قوية، وأي تشابهٍ بالأحداث هو ليس لمجرد الصدفة.

جميع ما سيأتي بين طيات هذه الرواية هي لأبطالها الحقيقيين، لكني جمعتها لبطلٍ واحد وفي قصةٍ واحد، لعلها تبين للناس حقيقة ما عانيناه من ألم الفُقد والحرمان بين أنياب الحرب الهمجية في زهوةِ شبابنا.

مصطفى المفتي

طفولة الكينا

صهيل الفرات وكبواته، ألحانه المولودة من عقمِ السنين، تراتيل من سكنوا بين أزقة حاراتها، حتى دعاء أمي لم يمنعها من أن تحبل بي....

أنا أخٌ لنايٍ صدئ.... وأختي التي قُطعت أوتارها لم تكن قد تعلمت البكاء بعد، سومريةٌ، لم تكن فقط مجرد أخشاب زانٍ تُربط مع أحد عشر وتراً، بل كانت نشيداً قومياً وقطعة حُبٍّ عُزفت في زمن الأموات، لكنها لم تستطع المقاومة عندما اجتاحت نغمات الناي مضجعها، فتقطعت أوتارها وانتهت كانتهاء أمنيتي أن أعود طفلاً لا هم لي سوى لعبتي التي كُسرت.
أما الحي الذي أسكنه، لم يكن سوى متحفاً منسياً ناهزَ الألف من عمره، أشجاره المعمرة، آثاره المهدمة، النقوش التي جمعت أوجاعاً وضحكات، قصص حب وترّهات، أغاني وصرخات تسمع صوتاً حين تقرأها، بساتين الرّمان والعنب، جنان الفل الدّمشقي تحبُس بداخلها ملايين الحروف ورسائل الحب.

حياتنا كانت بسيطة، مئات المنازل تسكنها عائلة واحدة، لم نكن نستيقظ باكراً على رائحة الخبز أو لظى النار وطقطقة الحشوش بداخل (التنور)، لم نكن نستيقظ على رائحة القهوة وصوت فيروز.

كان بعيداً كل البعد عن حياة المدينة المكتظ، وكان أبعد ما يكون عن هدوء الريف.

الباعة الجوّالون يسرقون منا ابتسامة الصباح، يحملون في طيات أصواتهم أغنى معاني الضجيج، تختلط الأصوات وتتعالى كأنهم في مضمار سباق (من يوقظ الناس أسرع من زميله)، في كل يومٍ كانت هذه النظرية تُثبتُ لي من خلال رحيلهم بعد استيقاظي.

أستقبل خيوط الشمس الذهبية، أتأمل سقف غرفتي للحظات، جسدي كسل خطواتي تقودني دون قوة مني دون انتباه، أرتشف آخر القهوة من فنجان أبي...

أبي كان رجلاً عصامياً، كان خليطاً بين الشدة والحنان، لم يضربني يوماً، لم يُضحكني، حتى أني لا أذكر يوماً أنه حملني بين ذراعيه.

كان يحب أمي أكثر مني - أعتقد ذلك - حتى أنه لم يرغم أمي على إعطائي فرصةً ليكون لي أخٌ غير ذلك الناي، أو أختٌ غير تلك الصماء البكماء مقطوعة الأوتار.

أمي كان لها مزاجاً جوزائياً متغيراً، تضحك مرةً وتبكي أخرى دون سابق إنذار، تخرج مصطحبةً معها كرسيها الصغير أمام باب المنزل، بعد أن تكون قد أغرقت ترابه وأخرجت عبقاً لا مثيل له من بين وروده، لتبدأ جلستها اليومية بين نسوة الحي، هي لم تكن مثقفة؛ لكنها كانت مرجعاً دينياً وعلمياً لهنَّ، كانت أُماً عظيمة، تجيد صنع أي شيء من لا شيء، حتى من دمع عينيها تصنع لنا ابتسامة!.

كبرتُ متراماً بين أشجار (الكينا)، أسند ظهري إليها شاكياً أوراقها المتساقطة فوق رأسي الصغير، وحيداً أنظر من حولي، مئات الطلاب الكبير منهم والصغير، جميعهم لهم شيئاً ما يصنعونه في تلك الدقائق، لا تعجبني تصرفاتهم، يثرثرون ويضربون بعضهم بأوراقٍ مكورة، جميع الصبيةِ يكرهونني لأني لم أكن أشاركهم اللعب والثرثرة، وكنت أصب جلُّ تركيزي على ما يقوله الأستاذ في الفصل.

أما فتيات الصف فكنت محط أنظارهن، بعضهن تعجبهن شخصيتي الهادئة الصامتة، وبعضهن كنّ يروني خجولاً لا أصلح مستقبلاً لحمل لقب رجل.

إلا (سارة)، كنت أراها تجلس في زاوية الصف، شقراء الشعر عسلية العين، في كل مرةٍ أنظر إليها يتغير لون شعرها ولمعة عينيها.!! حتى نصل إلى نهاية اليوم الدراسي فأجدها أصبحت خرنوبية الشعر سوداء العين.!

يا الله !! كيف حصل ذلك!!؟ هل اتفقت مع الشمس على فكري الصغير؟؟

كنت دائم النظر إليها، لا أعلم ما كان يدور في مخيلتي.

نخرج (للفرصة)... أول شيء أقوم بهِ هو النظر لشجرتي والذهاب والجلوس تحت ظلها، ولا أقوم بشيء آخر.

أما (سارة) تجلس على طرف درج البناء، تتطاير ضفائرها على كتفيها، فتبدأ مخيلتي .

أمد يدي، ألعب بتلك الضفيرة، تنظر إلي نظرة يستطير لها عقلي، أنفض رأسي تاركاً تلك الأفكار التي لا أعرف كيف تراودني.

أسير خلفها حين نذهب للمنزل، تضع يداها في جيوب بنطالها،

حقيبتها تتدلى على كتفها الأيمن، تخفض رأسها وتشق طريقها لمنزلهم تاركةً خلفها (عبقاً) يثقب أنفي.

تفتح أمي الباب، لأرتمي بين ذراعيها ناسياً تعب يومي، لأعود مجدداً لغرفتي الصغيرة وخزانتي التي احتوت جميع قصصي وذكرياتي واللحن الصدئ الذي يراودني حتى اللحظة.

تمضي السنين سريعةً، الناي في داخلي تكسّر، وكُسر الزان ودُفِنت قيثارتي تحت ضلوعي، خرج الصمت من عيوني وانتفض في وجهي معلناً ثورته لكني لم أعِ مطالبه.

أخبرني أني لم أعد أنا وأن خزانتي الصغيرة اكتظت بالترّهات وعليَّ أن أبدأ بتعزيل أفكاري، وأن الزهور التي وضعتها منذ زمن على نافذة غرفتي قد ملت الانتظار ورحلت ولم تترك أي أثر وعليَّ اللحاق بها، لكني لم أعِ ما قال لي... وأخبرني أن صمتي سيقتلني يوماً ما .

حتى انتهى بي المطاف تحت شجرة كينا أراقب خطواتها وهي تخرج من مدرستنا التي جمعتنا اثني عشر عاماً. كم لعبتُ بضفائرها وهمست في أذنها كم لمس خدها أطراف كتفي، كم مشينا على رصيف (كورنيش الفرات)، أتذكرين باعة الورود، الأكشاك، العم (حسين)، آه... لو أن ما في مخيلتي يصبح حقيقة.

دعوات أمي وابتسامةُ أبي في وجهي كانا حافزا نجاحي أما وقت دراستي فكان أجمل وقتٍ للتفكير ب (سارة).

أذكر جيداً حين انهالت علي أمي بالقبلات و(الزغاريد) وهي تقول لي: (ألف

مبروك يا أبني).

نظرت إليها وبدون أي تفكير قلت لها: وسارة؟

- من سارة..؟

- ها لا شيء.. وبدأتُ بالضحك خافياً ارتباكي في وجه أمي.

لا أذكر أني استغرقت أكثر من دقائق قليلة حتى وصلت إلى باب المدرسة، كان هناك عشرات الطلاب مجتمعين أمام لوحة الإعلانات التي خصصت لأسماء الناجحين من مدرستي.

ساعدني جسدي النحيل وطول قامتي على اختراق تجمعات زملائي و وصولي إلى الأسماء.

بدأت أبحث...

ألف.....باء.....تاء...حتى وصلت إلى حرف السين.

كانت فرحتي عارمة حين وجدت بجانب اسمها كلمة (ناجح) وبمحصل علامات رائع، ومن ثم بحثت عن اسمي لأعرف محصلتي.

هنا علمت أن القدر قد منحني شيئاً من الحظ، كان الفارق بيننا قليل، تلك النتيجة كانت تمنحني الأمل بأن أكون معها في الجامعة.

فرحتي وصلت ذروتها حين دخل أبي مبتهجاً والدمعة تُغرق عينيه وبصوتٍ ضاحك قال لي: كيف حالك دكتور يزن؟

كانت كلماته مليئة بالدفء والفرح، مليئة بالفخر والامتنان، دموعه تحكي قصة حلمٍ كان يُريد الوصول إليه، لكن الأيام لم تكتب لهُ تحقيقه، وها أنا أحقق حلم أبي بأن أدخل الجامعة.

أما الآن... فكل تفكيري كان بسارة، كيف أراها؟

كيف أعرف أياً من الفروع ستدخل؟

أأتركها للقدر مرة أخرى؟

لعل الله يجمعنا من جديد.

****

الخريف المزهر

الربع الثالث من عام 2004.....

الأرض قد اكتست ثوبها الخريفي الأصفر، والوريقات المتساقطة قد اتخذنَ أطراف الطريق ملجأً لهن من أقدام المارَّة.

أما السماء فقد احتلت كرات القطن(كما كنت أظنها في صغري) بعض أجزاءها، وأخذت الشمس تجهز نفسها لِشبهِ سباتِ شَتَوي.

وأنا لازلت حالماً بذات الضفائر، تراقصني نفحات الناي تارةً، وتخنقني بأوتارها قيثارتي معظم الأحيان.

لم تكن مدينتي تحتل أولويات الحكومة، منسية كرمال الصحراء التي تُحيط بها، كانت أُمٌ لآلاف الشوارع والأزقة، أما الخدمات فهي ضرب من الخيال... لذا كان عليَّ المسير يومياً مسافةً لابأس بها، محطماً تحت أقدامي بقايا أوراق الشجر.

غداً أولُ يومٍ رسميٍ لي في الجامعة...

لم أكن في صغري قد اعتدت سماع مصطلح (طالب جامعي)، وذلك لعدم وجود أي جامعة فيها.

كانت الفتيات بنسبة كبيرة منهن يحرمن من حقهن بدراسة الجامعة، بسبب سفرهن خارج المحافظة إلى حلب غالباً أو إلى دمشق كبقية جيلهن من الذكور، وهذا الأمر كان نادر الحدوث بسبب العادات والتقاليد التي تُسيطر على معظم العائلات في محافظتي.

ولأني قد عقدت صفقة مع الحظ منذ بلوغي أنقذني هذه المرة أيضاً، فقد تم افتتاح أول جامعة في محافظتي بفروع شتى.

تنتشل بعض أبناءها من الفقر العلمي دون الحاجة للسفر، وتتيح الفرصة لفتياتها برؤية الحياة بعيداً عن أسوار بيوتهن.

كان لي من الآداب نصيب في قسم اللغة العربية.

خرجتُ من منزلي باكراً أحمل معي دعوات أبي وتوصيات أمي، مختالاً في مشيتي، كأن العالم كله ينظر إلي، راسماً فوق شفتيَّ ابتسامةً نرجسيةً، أنقل قدماي ببطء وثقةٍ عارمة، متناسياً كلُ شيء من حولي، حتى وصلتُ الجامعة، إلى حلمي الذي حققته.

أبي كان يحلم أن يراني طبيباً، لكن الحلم كان مستحيلاً، فلا يوجد كليةً للطب في مدينتي، وكانت الأحوال المادية وكوني وحيداً لوالدي حائلاً بيني وبين السفر إلى محافظة أخرى، ومن جهة ثانية كانت محصلتي تنقصها بعض العلامات عن كلية الطب.

أما الهندسة كرغبة أمي، فلم يكن في مدينتي أي فروعٍ لها، وهنا يعود الحائل المادي عائقاً بيني وبين حُلمها، لذا اختصرت الطرق جميعها وانطلقت في أسهلها وأقصرها.

أحسست كأن يداً أوقفتني عند مدخل الجامعة، ما هذا البناء الكبير!!؟

كأني للتو أراه، لم يُشعرني بالخوف بناءه الكبير أو طول سوره، كما أخافتني الأعداد الهائلة من الطلبة الذين يُخيل إلي أنهم ينظرون لي جميعهم، ولم تُشعرني بالأمان رائحة الكينا التي تربيت عليها، كما أمنت لحلمي أن ألقى سارة بين تلك الجموع.

تنقلتُ بخطواتٍ هادئة أنظر حولي، وجوهٌ ضاحكة مستبشرة، ووجوهٌ شاحبةٌ كأن الخريف اجتمع في عيونهم.

سألت شخصاً كان يقف بجانبِ الباب عن كيفية وصولي لمكتب شؤون الطلبة،

أنا زرته مسبقاً لكن ما أصابني من ذهول قد أنساني إياه.

اتجهتُ بأقدامي لذلك البناء، صعدت درجاته، لم أكن معتاداً على ذاك الشعور الذي انتابني تلك اللحظة، أتلفت يميناً ويساراً، أنظر في وجوه الطلاب لعلي أجد وجهاً أعرفهُ.

بضع دقائق كانت كافية حتى وجدت الدرج الذي يأخذني إلى الطابق الأول ذو الممر الطويل والأبواب الكثيرة على الجانبين.

أفرغت ما في صدري من هواء وانطلقت إلى الطابق الثاني.

أوقفني (ياسر)...

شاب وسيم قد اختلط بعض الشيب على جانبي رأسه الدائري، وقد ترك بعضاً من شعر لحيته يتربع أسفل فمه، سألني بعجلةٍ أين شؤون الطلبة؟

نظرت إليه كأني أعرفه منذ ولادتي... لا أدري، وأردفت قائلاً أنا أبحث عنه، وقد قيل لي إنه في الطابق العلوي، استدرت متجهاً إلى الدرجة الثانية.

قال لي وقتها : هل أنت جديدٌ في الجامعة؟

أجبتهُ بنعم، مد يده مصافحاً وقال : ياسر سنة أولى أدب عربي.

كأن أحدهم أنقذني من بحر حيرةٍ كدت أن أغرق به.

ها قد أصبح عندي أول صديق في الجامعة، مندفعٌ إلى الحياةِ واثقٌ في خطاه، كنتُ أحتاج لأيَّ شخصٍ ينتشلني من بين أحضان أمي وخوف أبي، فأنا وحيدهم، وقد استهلكت ثمانية عشر ربيعاً دون أصدقاء، أو سهرات خارج المنزل، أو حتى تسكعٍ بمفردي.

أجبته وقد ارتسمت ابتسامة على وجهي: أنا (يزن) أيضاً في سنتي الأولى أدب عربي، أسكن في حي النهر وأنت؟

ذكر لي وقتها اسم حيٍّ كنتُ أسمع به لكني لم أره.

ذهبنا سويةً إلى مكتب شؤون الطلبة، وأتممنا بعض الاستفسارات وذهبنا لقاعتنا.

كان هنالك ساعتين لبدء أول محاضرة، فقررنا وقتها قضاء بعض الوقت لاستكشاف الجامعة.

عدنا لنقطة الصفر عند بابها الرئيسي، وكان قد شعر أني انطوائي قليل الكلام، فأراد أن يكسر بعض الحواجز بيننا، فعرفني عن نفسه أكثر وذكر لي بعض أساسيات حياته.

ارتحت له ولم يعد بالنسبة لي قشةً أتعلق بها حتى أنجو من بحر حيرتي، ثم أبحث عن قارب لأتمم رحلتي، بل كان هو القارب الذي سأكمل به رحلتي ضمن أسوار هذه الجامعة.

وبدوري ذكرتُ له أني وحيدٌ، ليس لي إخوة أو أخوات، وأن أبي يعمل في بيع الأوراق والطوابع بالقرب من دائرة عسكرية بعد تقاعده منها، وأنه لأسباب صحية تقاعد باكراً.

بدأنا باستطلاع واكتشاف الجامعة، ساحةٌ كبيرةٌ تضم بداخلها بناءً كبيراً وإلى جانبه بناء صغير (الكافتيريا) وآخر إداريٍ صغير، تغزو أشجار الكينا والصنوبر معظم ساحة الجامعة، تتربع مساحتها على ضفاف النهر، مما أعطاها أريجاً خاصاً ومزيجاً من رائحة تراب النهر وحبيبات الكينا العطرة.

دخلنا الكافتيريا وكانت آخر ما استكشفناه، ولم يعد لدينا سوى نصف ساعة لبدء المحاضرة الأولى، لم يكن هناك أي كرسيٍ شاغر، كأن الطلاب يأتون للجامعة فقط للجلوس في الكافتيريا.

وقفنا بباب الكافتيريا ننظر إلى وجوه الطلاب، لم تخلُ أي طاولة من اختلاط ضحكات الأصدقاء تارة، أو من همسات حبٍ تملأ المكان، خاصة بعد أن تم السماح لطلاب محافظتي الذين يدرسون في غير جامعات بالانتقال إلى جامعة المحافظة.

دخلنَ ثلاث فتيات يتألقن بجمالهن وبرائحة عطورهن.

كنت أخجل حين أنظر إلى فتاة، لكن ياسر كانت تلمع عيناه وهو يدقق في تفاصيل وجه أي فتاة تمر من أمامه.

وفي غفلةٍ، استدارت فتاة ونظرت لياسر نظرة استغراب، وحين رآها ضحك وقال بلهجةٍ غريبة: (أهلاً ...هي أنتِ هون).؟؟

بدأ يتبادل معها التحية والأخبار، وأنا أقف بجانبهِ وكأني من عالمٍ آخر، عرّفني عليها بأنها صديقة الطفولة، وأنهما في صفٍ واحد وفي حارةٍ واحدة.

- (حنين).

تضم في وجهها بستاناً من وردٍ جوري، شابةٌ تتربع على عرش الجمال، تحتضنُ في وجهها عيونٌ واسعة شديدة السواد حوراء.... رأيت سارة في وجهها الطفولي العفوي، كانت هي الأخرى في سنتها الأولى في هذه الجامعة، لكنها قسم (العلوم الإنسانية والفلسفة)، قد خرجت للتو من محاضرتها الأولى.

خرجتُ مع ياسر من الكافتيريا دون أن نشرب الشاي الذي دخلنا من أجله، لكنني ضممت أول صديقةٍ إلى عالمي بكلمتي (أهلا وسهلا تشرفت بمعرفتك)، مع ابتسامةٍ صادقة.

للمرة الثانية خلال ساعتين نبحث من جديد عن قاعتنا، كيف لذاكرةٍ طفوليةٍ مثل ذاكرتي أن تحفظ شكل الباب أو رقمه؟

في أول وهلةٍ شعرت أني أدخل محكمةٍ كما نراها في الافلام المصرية، مدرج عظيم بالنسبة لطالب ثانوية مثلي لم يرَ الحياة إلا من خلال مقاعدها وأمام لوح أخضر، تخلو القاعة من أي مظاهرٍ للألفة ودفء الصداقة، طلاب تعلوا وجوههم الحيرة والاستغراب.

احتلت الفتيات الطرف الأيمن من القاعة، بينما توزع الشباب بين صفيها الأوسط والأيسر، أما الزاوية اليمنى فقد وقع نظري عليها منذ لحظة دخولي القاعة، مكان سارة مازال فارغاً، ذهبت إليه وجلست فيهِ متناسياً كل شيء حولي.

أحسست أن الجميع ينظر إلي، أما ياسر فقد اختار له مقعدا بالقرب مني في المنتصف.

جلست في زاويتي أرتشف بعض الذكريات وأشم بعضاً من عطرها الذي لم يفارقني طيلة أشهر الصيف الجافة.

دخل المحاضر، وقفت بانتظار كلمة جلوس، لم أكن وحدي الذي نهض من مكانه، أغلب زملائي استعدوا للوقوف وتراجعوا عندما سمعوا كلمة (جلوس)،

وأردف قائلاً : لاتقفوا عند دخول المحاضرين أنتم الآن في مرحلة الجامعة أربع سنوات تفصلكم عن موضعي هذا.

أنا الدكتور(عصام بلحي) سأشرف على إعطائكم (علم النحو)، والذي سندرس فيهِ أساسيات علم النحو و القواعد المكونة للّغة العربية، وخصائص الكلمات في الجمل، وقواعد الإعراب.

أفرغت ما في صدري من هواء وسألت نفسي : ويلتي ما هذا المأزق الذي وضعت نفسي فيه؟ كل هذا في علم النحو، إذا ماذا بقي للمواد الأخرى؟، نظرت إلى ياسر الذي بدوره بدت ملامح الحيرة تعلو ناصيته كأنه قال لي (أكلناها).

بدأ النعاس يطغى على وجوه الطلاب، بعد أول ساعةٍ من الشرح المتواصل الذي لم نفهم منهُ شيء.

عم الهدوء أرجاء القاعة، صمت الدكتور لدقائق وهو يبحث في حقيبته العجيبة كأنها قبعة الساحر وضع فيها من كل شيء.!

الدكتور عصام كأنه اختار الاسم لنفسه، وجهٌ جاف عصامي شديد الملامح، طويل القامة، طريقتهُ بالتحدث والمعاملة تُشعرُني كأنه عاصر حروب الجاهلية وخاض نصفها، طيلة مسيرتي الجامعية لم أرهُ يبتسم، لم أرهُ يتحدث مع أحدٍ من الطلاب إلا أثناء المحاضرة.

أكمل النصف الثاني من محاضرته، ولملم أوراقه وكتبهِ، وخرج منهياً المحاضرة الأولى.

كأن الحرب حطت أوزارها في صدري، لم أكن أدري بهذا الكم من الملل الذي سينتابني.

يوجد ساعة تفصلنا عن المحاضرة الثانية (الأدب الجاهلي).

خرجت من القاعة قاصداً الهواء الطلق، بعد هذه المحاضرة أتوقع أني سأقضي على أكسجين هذا العالم بشهيقٍ واحد، أو أتسبب بعاصفةٍ بعد زفيري العالق في حلقي.

سمعت صوت ياسر يُناديني، أدرت رأسي، ياسر وبصحبته شابٌ رأيته في المقاعد الاولى في قاعتنا.

(حاتم) شابٌ حنطي البشرة ضخم الجثة ملتصق الحاجبين عابس، تعلو جبهته خيوط الحياة كأن بينه وبينها ثأر قديم، يمسك سيجارته برأس أصابعه ويغمض نصف عينه، يشهق من دخان تبغه كأنه يرتشف روحاً تفلت منهُ.

تصافحنا بعد تعارفنا، فرفع يده وأهواها إلى يدي وبلهجةٍ محلية قال: (أهلين يزن)

للحظةٍ اعتقدت أن عظامي امتزجت بلحم كفه وغاصت يدي بين طيات يده، سحب سكارةً وأعطاني إياها....

-لا أدخن شكراً لك.

أعطاها لياسر وأشعلها لهُ، سألته باستغراب: هل تشرب السجائر؟؟!!

رد علي بتعجب :نعم لِمَ الاستغراب؟!

كان شرب السجائر من المحرمات عند أمي ومن الكبائر في فكر أبي.

قاطع تفكيري حاتم مخاطباً ياسر بنفس تلك اللهجة المحلية التي انقرضت منذ سنين: ياسر... صاحبك طري... وقبل أن ينطق بكلمة أخرى قلت له: لستُ طرياً، لكن السجائر لا تصنع الرجال، ضحك كأنه أراد القول أنه يمازحني..

لم تعجبني تصرفاته ولا كلامه، لكني بحاجةٍ لصديقٍ مثله، يعرف تفاصيل الحياة وأسس عيشها.

عدنا لركننا في الكافتيريا، نفس الوجوه التي رأيتها صباحاً، باختلافٍ قليل.

جلست بجانب النافذة أدقق بأصغر التفاصيل التي حولي وأرمق نظري بخفة إلى وجه البنات، لا طريقة لدي لإيجاد (سارة).

أكملنا يومنا ومحاضرتنا الثانية لينتهي يومي الأول في الجامعة.

دخلت المنزل منهكاً، استقبلتني أمي ببعض القبلات وكثير الدعاء كعادتها، ومع وصول أبي من عمله بابتسامته التي تربيت عليها ودعائه الذي لا ينقطع، عشرات الأسئلة ضربت أذني، قدرت ذلك الفرح العميق الذي رأيته في عيون أبي الذي مازال يُلقبني بالدكتور، والابتسامة التي لم تفارق وجه أمي منذ اليوم الذي قُبلت به في الجامعة.

سردت لوالديَّ بعض ما حصل معي في يومي الأول.

تكررت المواقف والأحداث، بدأت أتأقلم مع واقعي الجديد وحياتي الجامعية الجديدة.

بدأت أتعلم كل يومٍ القليل من أساسيات اللغة العربية، والكثير الكثير من أساسيات الحياة وخضت الكثيرٍ من التجارب.

حتى أن حاتم انتصر علي وبدأت أتقاسم معه بعض سجائره.

ياسر أصبح الصديق المقرب لي وملاذي ووجهتي عند الاشتياق.

وأنا بيت أسراره وملاذه الآمن الذي يلجأ إليه خاصةً بعد أن توغلت حنين في قلبه، وأصبحا عصفورين جميلين يملآن سماء الجامعة بطيب همسات عشقهم

وعطر أنفاسهم.

أما حنين فقد اخترتها الأخت التي لم تلدها أمي، فكانت نِعم الأخت والصديقة . لكن الحياة أبت إلا أن تبعدني عن سارة، لم تكن ضمن أسوار جامعتنا ولم يعد لدي القدرة على الصبر أكثر، وعاد الناي ليعزف لحنه الصدئ في أذني ليرميني تارةً قرب ضفائرها ويبعدني ويقلل من عزيمتي تجاهها تارةً أُخرى. ولأن الحظ على اتفاقه معي، منحتني الحياة فرصةً ثانية للعيش بأسلوبٍ جديد، ومنهج آخر .

****

الشمس تشرق مرتين

الثاني من آذار لعام ٢٠٠٥.

صباحٌ ماطر، كأن الغيوم ارتشفت ليلة الأمس نهر الفرات، لتمطره علينا في الصباح، رائحة القهوة امتزجت مع رائحة الأرض لتشكل عطراً يخترق تلافيف الدماغ.

كم أحتاج ل (حاتم) الآن، لا أستطيع حتى أن أفكر بشرب السجائر في المنزل، مجرد التفكير بذلك يُشعرني بالخجل الشديد من نفسي ومن والداي، كانت تقول لي دوماً إني طفلها المدلل حتى لو أصبحتُ جداً لعشرين حفيد.

لم أخرج يوماً دون الجلوس أمامها وتناول وجبة الإفطار معها.

كانت أختي، كانت صديقتي، كانت ملهمة أفكاري وملجئي حين الحيرة، لم تكن فقط أمي.!

دقائق تفصلني عن موعد خروجي، كأن عقرب الدقائق هذه المرة كان على عجلةٍ من أمره، تقصد إنهاء دورة كاملة ببضع ثوانٍ فقط!.

بدأت خيوط الشمس تشق طريقاً لها بين الغيوم المتلاصقة، التي اعتصرت آخر قطراتها واستعدت للرحيل.

خرجت من منزلي، شعرت أني مندفعٌ والتفاؤل يملأ كينونتي.

هلالة حبٍ تُحيطهما، كأن الكون اختصر الحب فيهما.

ياسر وحنين، كأنهما عصفورين يملآن سماء دنياي بأسمى تغاريد الحب .

تقصدتُ تجنبهما، لم أقطع عشقهما يوماً.

قبل دخولي القاعة سألني أحدهم عن سبب غياب المحاضر.

لم أكن أعلم حتى بغيابه، ولم يعد لدي خيارٌ إلا أن أعود لعصفوري الحب وأقطع خلوتهما لأول مرة، وقبل أن ألقي التحية، أخبرني ياسر بإلغاء المحاضرة بسبب حالة وفاة عند المحاضر، وبأنهم سيذهبون إلى كلية الحقوق، وعرض عليّ الذهاب معهم.

لم أكن وقتها أعلم أن الشمس اليوم ستشرق مرتين، مرةً من شرق الأرض ومرةً من كلية الحقوق، وأن جنةُ الله في الأرض التي يتحدثون عنها تقع في تلك الجامعة الصغيرة، لم أكن أدرك نظرية السبب والمسبب حتى تلك اللحظة، حين جعل الله وفاة شخص ما سبباً لإنهاء حيرتي.

لم يكن باستطاعتي معرفة الدراسة التي أكملت بها "سارة" .
لعدم مقدرتي كسر حواجز وعادات الحي، من المستحيل أن أقف جانب منزل أحدهم لألحق به او أسير خلفه لمعرفة سبب ما.

ومن جهة أخرى، أنا شاب خجول لا أملك الجرأة الكافية لفعل ذلك، ولأن القدر بقيَ على اتفاقه معي، أعطاني هذه المرة فرصة أخرى، وجعل منها منعطفاً في حياتي.

ما إن وصلنا باب الجامعة، وللحظة، توقفت الأرض عن الدوران وارتعش قلبي مغيراً نظام خفقانه، أحسست أن الفراغ ملأ كل شيء، وأن الدنيا ملكي أنا لا يقاسمني إياها أحد.

رأيت سارة تخرج من باب الجامعة ترشق شعرها الحريري المُذّهب على كتفيها، تحمل ابتسامة تحكي عمراً من الفرح، ومن مقلتيها تستمد الشمس نورها، ويحتاجها الورد في كل مرةٍ يقرر صنع عطر لذاته.

حاولت نقل قدمي للأمام لكن القوة خانتني هذه المرة، أمسكني ياسر وسألني: يزن هل حصل شيء؟

أجبته وقد بدأت الابتسامة تشق طريقها نحو ثغري.

- أجل ... تلك الفتاة هي (سارة).

حاولت أن أجمع شتاتي المتبعثر بين عيونها، بين خصلات الذهب في شعرها، جنان الورد في وجنتيها، ثوانٍ مرت ك أعوام، الأرض للحظةٍ أعتقد أن زلازلها اجتمعت في قلبي، قاطعت حنين خلوتي وقالت: إن ابنة خالتها تدرس في كلية الحقوق في سنتها الأولى وعرضت عليَّ المساعدة، طلبتُ منها وقتها أن تنسى

الأمر، ولا تبدي أي شيء حتى يحكم الله به.

أكملتْ طريقها وركبتْ الحافلة وتركتني لأشلائي ولبقايا عطرها .

شعرت برغبةٍ للرقص يومها، شعرت أني سأركض كطفلٍ فرحٍ بطائرته الورقية أحلق بها بين حارات الحي.

سارة لم تكن أنثى كباقي الإناث، أعشق كل تفصيلاتها، همساتها، لونها المفضل، ضحكتها، ملابسها، كل شيء يعود لها.

ومنذ ذلك اليوم أصبحت كلية الحقوق وجهتي في كل صباح .

أقف متأملاً وجهها من بعيد، أعشقها بصمت، وأنتظر أن يؤتيني الله قوةً لأقف أمامها معلناً حبي لها.

الوضع المادي السيء لعائلتي، وقطيعة أخوالي لنا منذ زواج أمي بأبي، وجشع عمي الوحيد الذي سلب والدي ورث جدي، والعزلة الاجتماعية التي ترعرعت فيها، كل هذه الأسباب وغيرها كانت حائلاً أمامي لفعل أي شيء يدور في رأس الشباب.

التغير الذي طرأ على حياتي في هذه الأشهر القليلة جعل مني شاباً متقلب الأطوار، ففي المنزل ما زلتُ ذلك الشاب الانطوائي الخجول الكتوم المتلعثم في كلامه، أما في الجامعة وبين زملائي فأنا الشاب المنفتح المندفع للحياة الفصيح المتحدث، ومع ذلك لم تشفع لي هذه الصفة لأكون محبوباً لدى الجميع إلا من عرفني عن قرب.

ياسر كان يتخذني عرّاباً لحل مشاكله -إن وجدت - مع حنين .

أما بدورها فكانت تتقبل تدخلي أحياناً وترفضه أحياناً أخرى وتتعمد إبعادي .

- دخلت علينا مرةً برفقة صديقةٍ لها .

كنا نجلس أنا وحاتم وياسر بزاويتنا المعتادة في كافتيريا الجامعة.

حنين برفقة (ياسمين).....

طفولية عفوية، جميلة الوجه، أتت للدراسة من محافظةٍ ليست ببعيدة تحمل بين طيات حياتها نفس عاداتنا وتقاليد معيشتنا وطبقتنا الاجتماعية.

في هذه الأيام لا يفصلنا عن العطلة الصيفية سوى بضع مواد سنمتحن بها في الأيام القليلة القادمة، كنت من عُشاق الدراسة ومن المميزين عند أغلب المحاضرين، فما زالت لدي القدرة الكافية للحفاظ والفصل بين حدود حياتي كشاب عاشقٍ مندفع للحياة، وبين حياتي الجامعية والدراسية، لكن شغفي بسارة وبإيجاد طريقة تقربني منها أكثر، وتُدخلني بحياتها بشكلٍ طبيعي كان لهُ حيز كبير من وقتي، خاصة في وقت خلوتي مع نفسي، فعلى أنغام بعض الأغاني ورائحة حبيبات البن المغلية، رسمت بمخيلتي أجمل لوحات العشق، وطرزت أجمل حروف وعبارات، وجهزت نفسي لسرد كل مشاعري حين اللقاء بها، ومع كل مرةٍ أراها، يطير الكلام وتتشتت أفكاري.

السنة الدراسية الأولى تشارف على الانتهاء، كانت محصلتي الدراسية يُكللها النجاح أما حياتي العاطفية فكانت تحت الصفر .

اليوم الخامس عشر من شهر حزيران لعام 2005 .

صباحٌ جاء بحرارة ورياحٍ سمومية، محملة بالغبار تضيق لها الأنفاس، قررت ليلة الأمس أن أواجه سارة اليوم، فهي فرصتي الأخيرة، قد أخبرتني حنين نقلاً عن صديقةٍ لها، أن اليوم هو الأخير في السنة الدراسية الأولى لطلاب كلية

الحقوق، وبأن سارة لديها امتحان بين الساعة العاشرة صباحاً حتى الواحدة ظهراً.

وجدت لنفسي مقعداً في ساحة الكلية أمام البناء الأول .

أراقب بنظراتي وجه الخارج والداخل من المبنى، حاملاً بيدي وردةً بيضاء صغيرة، قطفتها من حديقة الكلية، كاد صبري أن ينفذ، خلال مدة الانتظار راودتني آلاف الفكر والتهيؤات لما سيحصل معي .

في لحظةٍ رفعت راسي كأن أحدهم قال لي أتت.

خطوات واثقةٌ رزينة، تحمل جسدها أقدامٌ قوية، يغطي شعرها الذهبي نصف جسدها المتزن، تحمل بيدها اليسرى كتاباً وبعض الأوراق، وبيدها اليمنى ترفع بعض الشعر عن عينيها اللتين أخذتا نصف وجهها... أين بستان الجامعة من إحدى وجنتيها... في وجهها جنات من ورود وبين شفتيها تسكن الأبجدية.

كأن الله خلقها ليثبت أنه القادر على كل شيء... يا رب منك أطلبها

قلت هذهِ الكلمات وهممت للنهوض إليها.

عندما وقع نظرها علي أحسست أني أرتكب أكبر الجرائم وأنها فرصتي الأخيرة للهروب، لكنها أسرتني عندما ابتسمت، فانهارت قواي وكأنها انتصرت علي بأول قضية تترافع فيها ضدي.

-يزن ؟؟

صمت صعق أعماق أعماقي، كأني لم أتعلم النطق بعد، تركز الدم للحظة في مكانه وبدأ الأدرينالين عمله، اختلط الشهيق لدي بالزفير ولم يعد هناك هواءٌ يكفيني، مترٌ واحد يفصلني عن سارة .

-يزن كيف حالك، أراك هنا؟

وبتلعثمٍ وتأتأة لم أقع فيهما من قبل أجبتها بأن لي صديق وقد أتيت لرؤيته.!

-وأنتِ كيف حالك؟

- جيدة، اليوم أنهينا الامتحان وننتظر النتائج.... وأنت؟

أفرغت صدري من هواء كاد يخنقني، وبعجزٍ أجبتها: أدب عربي، الحمدلله كل شيء على ما يرام.

فأردفت قائلة : -الحمدلله، أنتبه لنفسك.

وقبل أن تكمل كلامها قلت بلهفة: إلى أين... أعني هل بإمكاننا أن نجلس قليلاً ونشرب القهوة؟.

اعتذرت لضيق وقتها وهمت بالرحيل فطلبت مرافقتها بحكم أننا في حيٍ واحد وطريقنا واحد وأن صديقي تأخر وعلي الذهاب.

بضع دقائق تطرق ذاكرتي في كل شرود ذهن، أجمل يومٍ في حياتي وأروع خطواتٍ خطتها قدماي.

كنا نمشي فأشعر أن النهر يراقبنا والسماء والأشجار، وأن الزهر يترك عبقه ويتّبع رائحة خطواتها، تزهر كل خطوة تخطيها.

تحدثنا طويلاً عن أيام طفولتنا وأصدقاء الطفولة وتذكرنا سويةً لحظاتٍ جميلة مررنا بها، وأشخاصٍ مروا بين مقاعد الدراسة.

كم تمنيت أن الطريق يطول، لكن هيهات، كل لحظات السعادة تمر مسرعةً.

وصلنا إلى شارع منزلها طلبت منها اللقاء مجدداً واستودعتها الله في صمتي، ذهبت نازعةً معها آخر حيرتي ولحظات صمتي.

أطفأت بابتسامتها الأخيرة ناراً كادت أن تحرق ما في داخلي، لينتهي هنا ضعف أفكاري واهتزاز شخصيتي وترددي وحيرتي، وتزهو من جديد زهرة شبابي ويتّزن ثانيةً طيش أفكاري .

تزايد حبها في قلبي يوماً بعد يوم، حتى أصبحت تلك الزهرة التي زرعتها في قلبي شجرةً تلامس أطراف جذورها الأراضي السبع، وتعلوا وريقاتها سبع سموات.

وتزهر أرض الفرات بعد قحلٍ دام تسعة عشر عاماً.

****

اعترافات

لم أكن جسوراً، منطقي، وأعرف أن الفراغ لا يُمسك، وأعلم إن الأيام سريعةٌ لا أقدام لها، ويجب علينا ألّا نستقدمها، كل شيء في أوانه جميل، كنت متأخراً دوماً، أكره فوضوية الوقت عندي، دون أن أدري أحكمُ نفسي بزمنٍ ليس بكافٍ، أجدني بأماكن ليست لي، كأني أخترت اسمي، فوضويٌ كنبات اليزن، لا أنبتُ إلا في غير موضعي، لم أترك وقتاً حين أجبرتُ نفسي على لقائها في آخر يومٍ من أيام امتحاناتها، تجاهلت عاداتِ حيّنا، ولم أفكر كيف سأقضي أيام صيفيَّ الجّاف دونها.

في السابق كُنّا أطفالاً، أراها بين الفتيات تلهو، والآن لا أراها حتى في أحلامي، لم تترك لي الأيام لذة كتابة حروف لها في رسالةٍ أضعها خلسةً بين دفاترها، ولم أجرؤ على فعلها قبل.

أن تكتب رسالة لمن تحب، تلك تضاهي بلذتها رؤيته بعد اشتياق، احتضانه بعد جفاء، لكن الصدف أحياناً تعوضنا عن ألف موعد.

في الأول من آب لعام 2005، يُقام مهرجان الفرات السنوي.

يتجمع مساء هذا اليوم معظم سُكان المدينة لمشاهدة مراسم افتتاح المهرجان.

ذهبتُ مع ياسر وحاتم هذا العام والتقينا مع حنين بموعدٍ مسبق.

كان الشوق قد بلغ ذروته بينها وبين ياسر، لذا تركنا للعاشقين فسحة من الوقت ومضيت مع حاتم بين جُموع الناس.

تحدّث يومها عن إعجابه بياسمين، وبأنه لم يعد يطيق البعد، وقد عزم على أن يطلب المساعدة من حنين ليتسنى له الاتصال بها.

رفضي لفكرته ونُصحي له بتأجيل ذلك حتى رجوعها قد أوقعاه بحيرة لم تكن غريبةً بالنسبة لي.

أثناء حديثنا رفعت رأسي لأرى الشمس قد أشرقت من جديد، في مساءٍ كان الأجمل من أي مساء.

كانت سارة برفقة أمها وأختها الصغيرة، لم أستطع فعل أي شيء سوى النظر إليها من بعيد، لم أكن قد اعترفت لسارة بحبي لها، لذا كان الذنب ذنبي بالتزام الصمت والاكتفاء بالنظر إليها.

رأيت أبي وأمي يقفان على طرف الطريق، يأكلان بعض الحلوى، يمجدان أرقى

صور الحب بينهما، كأنهما عاشقان حديثي العهد.
أبي كان يكبُرني بثلاثين عاماً، أما أمي فكانت تصغره بسبعة أعوام، لكني رأيتهما مراهقين جميلين، كما لم أرهما من قبل.
أخذت حاتم وانطلقت إليهما لقطع ذاك الانسجام العاطفي بينهما.
حاتم قد زارني سابقاً في منزلي ودار بينه وبين أبي نقاشٌ عقيم حول شرب السجائر لم يأتِ بنتيجة.
عندما رأى أني برفقة حاتم، أحسست بكلماته تطرق أُذني تنهاني عن مرافقته، لأنه بنظر أبي شاب سيء الطّباع بسبب تلك السجائر .
لم يكن لدى حاتم أي عادةٍ أو تصرفٍ سيء غير السجائر وعفويته بالكلام، غير ذلك كان شاباً طموحاً ذو أخلاقٍ عالية، لكن الناس بالمجمل ينظرون إلى الشيء الظاهر منا، أكملت سهرتي مع والديَّ بعد أن استمع حاتم لمحاضرة والدي ضد السجائر وذهب.
كنا أيام المهرجان نقضي ساعات الليل فيه، ولا نعود للمنزل حتى بزوغ ضوء الفجر، ونكرر هذه السهرات يومياً، حتى انتهاء المهرجان فلا تجد أحدا خارج منزله نهاراً، خاصةً وأن شهر آب في مدينتي يُريك من حرارة جهنم، كما كان يصفه أبي.
وتمضي الأيام وينتهي ذلك المهرجان ولم يمنحني القدر صدفةً أخرى لرؤية سارة غير تلك الصدفة.
في أيام العطل يعم الصمتُ أرجاء حارتي صباحاً، فالأطفال يجدون فرصةً لملاعبةِ آباءهم، أمّا المراهقين والشبان فهي فرصتهم للنوم ساعةٍ أو اثنتين زيادةً عن بقية الأيام، والنساء لا يتسنى لهن الجلوس على أبوابِ المنازل يوم العطلة، أو القيام بزياراتٍ صباحية، فهذا الوقت من حق أزواجهن في هذا اليوم.
أبي كان عسكرياً في حرس الحدود، أصيب يوماً أثناء تصديهم لعملية تهريب، وبسبب هذه الإصابة أُحيل للتقاعد الصحي المبكر.
لكنه وجد لنفسه عملاً بالقرب من دائرة حكومية في كشكٍ صغير لبيع الأوراق الرسمية والطوابع.
أمّا أمي فلم تكن موظفة او عاملة، حتى إنها لم تكمل دراستها بسبب العادات

التي كانت تسيطر على عقول أخوالي وجدي، بأن الفتاة مكانها ببيت زوجها والمطبخ، فلا داعي للذهاب للمدارس لأنه بنظرهم (حكي فاضي)، لكنها كانت المثقفة بالنسبة لبقية النسوة في الحارة، ولها مكانتها العلمية فهي تستطيع القراءة والكتابة.
ولهذا كانت هي ملجأ الكثير من النسوة و(حلالة المشاكل)، والمرجعية للكثير من الأمور المنزلية .
الثامنة صباحاً يوم الجمعة الأخيرة من شهر آب، أيام قليلة تفصلنا عن انتهاء العطلة الصيفية، لم يكن جسدي معتاداً للنوم لساعاتٍ متأخرة من النهار، قد فاتني إغلاق المذياع ليلة الأمس وهاهم يفتتحون يومهم ببعض الذِكر العطر و آياتٍ من القرآن الكريم.
رائحة القهوة كانت قد طالت أنفي، عند خروجي من غرفتي كان هنالك أصواتاً كثيرة وضجيج أطفال لم أكن معتاداً عليه في أيام العطل، أخبرتني أمي يومها عندما تقاسمت معها قهوتها الصباحية، أن اليوم عرس معتز ابن جارنا، وهم ذاهبون الآن لإحضار العروس من قريتهم.
وفي الظهيرة ذهبت مع والدي للمسجد لصلاة الجمعة فسكنت روحي قليلاً.
لم أكن من المصلين، أحبُ الله كثيراً، وأثق أن توفيقي من الله، ومن دعاء أمي.
لكني أحب فيروز أيضاً، وأحب الموسيقى والسفر بين ألحانها، أكثر ما يشدني هي حلقات الشيخ (الشعراوي) وحديثه عن الله، وعن المحبة التي زرعها الله في قلوبنا لبعضنا لكننا لم نُحسن استخدامها، أكره الذين ينطقون كلمة حرام أكثر من كلمة حلال، والذين يسترون أفعالهم بغطاء الدين، لا تستهويني (صيحات الموضة) أو أخبار الفنانين لكني أُقدس الصوت واللون العراقي في الغناء، العراقيون يُعبّرون عن مشاعِرهم بكل ما أوتِوا من قوة، عن الحب، الحزن، الاشتياق، الفراق والقرب، يشعرون من أعماقهم.
الأعراس قديماً كانت تقام في إحدى الساحات، ولم يكن حضورها يحتاج إلى كرت دعوة، أغلب الأعراس كان تنتهي بمشاجرة، لذلك كنت إن حضرت أحد الأعراس أُغادره باكراً.
جلستْ أمي مع نسوة الحارة، أما أبي فقد اختار قضاء وقته مع الحج حسين أمام بقاليته، ولأني لم أكن أعرف أحداً من شباب الحي، اخترت إحدى الزوايا

البعيدة وجلست.
ما لوجودي سبباً أكثر من أني رجوت لقاء سارة في العرس، وكان لي ذلك، أتت برفقة أمها وأختها كأنها القمر، مكتملة الجمال، جذابة، لم أعد أسمع أي أغاني أو أهازيج فوقع خطاها وضحكتها احتلت مسامعي، قلبي ارتجف في مكانه ورقص فرحاً حين أتت، حاولت أن أجذب ناظريها تجاهي مراراً لكني فشلتُ في ذلك، كان من الصعب أن أخترق صفوف النسوة لأراها عن قرب أو تراني، حتى أني حين اختلقت حجةً للحديث مع أمي، انتبهت إلي وأتت هي قاطعةً علي فرصتي الاخيرة، كانت أمي تنظر إلي، وكان وراء نظراتها وابتسامتها حديثٌ طويل واعترافاتٌ سأقر بها.
أثناء ذلك سمعت صوت صراخٍ وبعض الشتائم، بدأت المشاجرة باكراً هذه المرة، في مثل تلك المشاجراتٍ يجب عليك الوقوف جانباً حتى تعرف على الأقل من هم طرفي المشاجرة، وقفتُ بجانب أبي محاولاً فهم ما حصل لكن لا جواب.!

حاول أصحاب العرس ورجال الحي الفصل بين المتشاجرين، لكن دون فائدة، مما استدعى الأمر إبلاغ الشرطة لإنهاء المشاجرة، وخرجتُ دون أن أُملي ناظري بعد من سارة.
عدت للمنزل، استقبلتني أمي بابتسامة مع نظرة حادة، علمت أني سأواجه تحقيقاً مطولاً، لذلك اختصرت الطريق على نفسي وأدليت ما في جعبتي لأمي.
اعترفت لأمي بحبي لسارة وأني لم أتحدث معها بعد.
لم تُعلّق يومها ولم تقل أي حرف، أخذت قهوتها واكتفت بقول (الله يقدم يلي فيه الخير)، لا أعرف ما الأمر لكني أحسست أن أمي لم تكن مُرتاحة يومها.
عادت الحياة مجدداً عند اجتماعي بياسر وحنين في كافتيريا الجامعة، اجتماعي بهما كان بمثابة لقائي بإخوتي بعد غياب، لكن أمراً ما كان قد حدث، هكذا تحدثت وجوههم يوم لقائهم.
سألتني حنين يومها عن سبب حبي لسارة، نظرت إليها وقلت لها:
الحب رزقٌ من الله، لا يوجد سبب للحب، إن كان مشروطاً بسبب ما، سيزول الحب بزواله ،رأيت الأجمل منها، لكن كلما نظرت لوجه فتاة رأيت بوجهها

سارة، ألم يقولوا (وما الحب إلا للحبيب الأول) فما بالكِ أنه الحبيب الأوحد؟؟ تنهدتْ، وكأن الجبال فوق صدرها والتفتت لياسر وذهبت ،رأيتها حين أشارت لياسر بعيونها، سألت ياسر عن الأمر أجابني : فيما بعد.
الجو ماطرٌ في الخارج، كان شتاء مدينتي قاسٍ بالنسبة لصيفه الحار، أخرج ياسر هاتفه من جيبه ... كانت تلك المرة الأولى التي أرى فيها هاتفاً محمولاً، يقتصر حمله على رجال الأعمال وأبناء العائلات الغنية نوعاً ما، أنا أفهمه جيداً لم يكن إخراجه لهاتفه إلا نوعاً من التهرب.
سألته عن الأمر فقال هل أخبرك حاتم أنه معجب ب ياسمين؟؟
أجبته بنعم... هل حصل شيء؟؟
قال لي عندها إن ياسمين معجبه بي، وأنها أباحت بسرها لحنين، ولأن حنين تعلم بحب حاتم لياسمين أخبرتني بسر صديقتها، لمعرفة ما سنقوم به.
لم يكن يعنيني الأمر، لكن شعور حاتم إن علمَ بالأمر هو ما كان يشغل بالي، فلم يكن أمامي إلا الحديث مع ياسمين، وبطريقة ما أصرف فكرة الإعجاب هذه.
في اليوم التالي، كنت مع ياسر فالتقينا بحنين وياسمين، فتح ياسر معي موضوع علاقتي بسارة وإلى أي حد آلت إليه علاقتنا فأجبته بأنه لا جديد ولم أفاتحها بالموضوع بعد.
أحسّت ياسمين وقتها أن صديقتها أفشت بسرها، خاصة أن طريقة ياسر بالحديث كانت مبطنة بإشارات وتعابير فاضحة، فأرادت الابتعاد عن هذا الموضوع بسؤالها عن حاتم وما حصل معه.
حاتم بعد تعرضه لحادث مروري بدراجته النارية، وبعد شفاءه من بعض الكسور الخفيفة، عاد للجامعة حاملاً معه شقاوته التي اعتدناها، وحبه وشوقه لياسمين، وما أن التقيا حتى طلب منها التحدث فراداً، لم يكن الأمر يعنيني كثيراً.
ذهبت لكلية الحقوق بعد عدة أيام والتقيت بسارة، لكنها لم تكن بمزاج يسمح لي بالبوح بما في داخلي، الجميل في الأمر أنها قد حصلت على هاتف جوال خاص بها، وهكذا سيكون التواصل معها أسهل بكثير، أعطتني رقمها الخاص للاحتفاظ به، وللحديث معها إن شئت، رأيت بها هذه المرة الشمس التي لن تغرب عن حياتي.

يوماً بعد يوم تكسر حاجز الخوف والخجل عندي وازدادت علاقتنا وبدأنا بالتحدث بأمور شتى، بدأت تتفجر عندي مواهب الشعر والخواطر، كنت أكتب لها كل يوم مئات الكلمات، أحتفظ بها شيئاً في خزانتي الصغيرة وشيئاً في عقلي المزدحم بحبها وشغف اللقاء.

تضاءلت نفحات الناي، وبدأت قيثارتي بترميم نفسها شيئاً فشيئاً، حتى شتاتي بدأ بالتجمع حولي لهيكلتي من جديد، أخبرتني يوماً أني كنت جميلاً في عرس معتز، لقد رأتني يومها لكني لم أنتبه لذلك .

وأنها في بعض الأحيان تود الاتصال بي، لكنها تتردد خوفاً من ألّا أكون أنا من يُجيب، حتى حصلت أخيراً على هاتف خاص بي، فأصبحت الأمور أسهل لكلا الطرفين، ولأنها كانت مغرمة بالقراءة وقصص الأبطال المحجوزين بين طيات الكتب، اعتمدت ذلك الأسلوب في بوح ما في داخلي فكانت أولى رسائلي الغرامية لها،

■ <u>ك نجمتين يتوسطن سماءَ عمري عيناكِ</u>

<u>إحداهما تحكي قصةَ خالقٍ والأخرى تثبت وحدانيته.</u>

أذكر يومها كم اعتلاني التردد والخوف حتى ضغطت على زر الإرسال، انتظرت ساعتين ولم يأتني رد منها، كتبت لها رسالتي الثانية وقد شارف الليل على انتصافه.

■ <u>ك نجمتين يتوسطن سماءَ عمري عيناكِ</u>

<u>فهل يا ترى أبليسٌ كان قلبي عندما رُجم؟</u>

بعد خمس دقائق وأثناء عزمي النوم اهتز قلبي قبل هاتفي.

برسالة كتب فيها (تصبح على خير).

حلمتُ يومها أنها تتوسد ذراعي وتقول لي إنها خائفة وتطلب مني البقاء بقربها مهما حصل، كأن الله أرسل الطمأنينة في قلبي .

أمي لم تكن راضية لما حصل كانت تريد مني دخول المنازل من أبوابها على حد قولها خاصة أننا (جيران)، وإن كُشِفَ الأمر سيتسبب بمشاكل للطرفين. كلامها لم يكن خطأ لكن كيف وأنا كنت ما أزال أعتمد على والدي حتى في مصروفي الخاص، حتى جاء أخيراً موعد لقاءنا الأول.

في الخامس والعشرون من شهر تشرين الثاني لعام ٢٠٠٥...
جلسنا متقابلين على طاولة تحتضن شمعة و وردة، وعلى جانبيها فنجاني قهوة، كل منا ينتظر حديث الآخر، ابتدأت حديثها بسؤالٍ عن تلك الرسائل، فأجبتها بقولِ واثقٍ دون تلعثم كأني حفظت قولي مسبقاً

- الكلام الذي سوف أقوله قد فكرتُ به ألف مرة قبل أن أبوح به:

((لم يكن حبكِ وليد اليوم أو الأمس، لقد تربينا سويةً، عشت فيه أكثر مما عاش بي، تربيت على وحدانية حبكِ، كما عُلّمتُ وحدانية الله، لم أشرك فيه أبداً ولن أشرك، ولأني أعلم أن جزائي من جنس عملي سأظفر بكِ يوماً، أعلم أنه يجب علي دخول المنازل من أبوابها، وأن كلامي معكِ الآن خطيئة في نظر البعض، لكن احترامي لقرارك أولاً وظروفي المادية ثانياً تجعلني أتروى قليلاً...))
عم الصمت من جديد، صمت يُشعرني بالقلق، نظرت إلي مطولاً، ابتسمت، ارتشفت بعض قهوتها، عادت لسكونها.
الموسيقى الهادئة، وارتعاش قلبي كلما نظرت لعينيها، جعلا مني كتلة من توتر بعد أن اجتاحت أركاني قوة لا أدري من أين أتت، بدأت ركبتي اليسرى

بالاهتزاز معلنة حدة توتري.

لم تقل لي فاجأتني، و وضعت يدها على وجهها كما نشاهد في التلفاز، ولم تقل لي وأنا أحبك، كما كان يحصل في مخيلتي حين نجلس، لكنها اكتفت بمسك يدي وقالت: أريد منك وعداً أن تبقى بجانبي.

حطت الحرب أوزارها، وأعلنتني منتصراً على ذاتي.

وبابتسامة نصر قلت لها : من تربى على حبكِ لن يخذلكِ أبداً، كوني واثقة.

الدنيا حين تبتسم لك، تصنع منك إنساناً بخطوات ثابتة، وهدفاً تحارب للوصول إليه.

بدأت الأيام تحلوا ونما الياسمين فوق دفاتري، اصبحت الجامعة هي العائق الوحيد بالنسبة لي، بعد قرارنا تأجيل كل شيء لِما بعد التخرج، لأكون ذو موقف ثابت أمام أبيها، ولإعطائي فرصة أطول لتكوين ذاتي.

الشمس تشرق من جديد فوق ربيع محافظتي، كان لنهر الفرات النصيب الأكبر من أسرارنا وحكاياتنا، اعتادت علينا النوارس وألِفَ وجودنا الوز البري فكان صديقنا في السراء والضراء، الأزهار البرية الملونة تتراقص فرحاً حين قدومنا تستمد عطراً من أنفاسنا. يعتصر الفرات خجلاً حينما تلامس أصابعي خديها، كلمات الحب تأخذ أبجديتها من غزل عينيها، وتُقتل الحروف شوقاً حين ينطق مبسمها.

أجمل ما في الحب خفيته، نسرق الأوقات ونختلس الدقائق لنصنع منها بهجة يومنا.

نيسان كان الأجمل، شهر يفصلنا عن العطلة الصيفية، ولأن الحب يقدره الجميع جعلوا من نيسان شهر الحب والرحلات، فقد قررت إدارة الجامعة إقامة عدة رحلات في نيسان، وقد اتفقنا على الذهاب بإحداهن.

الجمعة السادس من نيسان لعام 2006 ،صعدنا الحافلة واخترنا لأنفسنا المقاعد الوسطى، ياسر بجانب حنين، حاتم بجانب ياسمين، وأنا بجانب سارة، قسمة عادلة لقدر عادل.

أيمن المنظم لتلك الرحلات، شابٌ تفصله مادتين عن التخرج يعرفه الجميع، هو المرجع لكافة المشاكل التي تواجه طلاب الأدب العربي، روحه المرحة جعلت منه محبوباً لدى الجميع، صوته الفراتي وحفظه لمئات (المولية)، جعلوا منه مطرب الرحلات المفضل، وقف رافعاً يده معلناً بدء رحلته الغنائية، وبدأ الجميع بالتصفيق وبدأ الصفير والهتاف؛

قلبي على ابو زلف عيني يا موليه

يا احباب لا ترحلوا ضلوا حواليه

ومن غير ريم المها ما حلالي مزيون

واني بهواها سكرت تقول الخلق مجنون

والله إن عطوني هلك إلهم انا ممنون

وصيام لله شهر نذر يا البنيه...

تلاصقت أكتافنا تتمايل يميناً ويساراً، ونظرات العشق تُغرق كلانا، يُلامس شعرها الذهبي وجهي فتمتزج رائحته بدمي، تهمس في أذني بصوتها العذب دندناتٍ تتراقص لها عصافير البرية، ونكمل طريقنا الذي لم أود أن ينتهي

لتقف الحافلة بجانب ضفة النهر.

وقف أيمن أمامنا، حدثنا قليلاً عن المنطقة وأعطانا بعض التعليمات بشأن الرحلة، وانطلق كلٌ منا لشأنه.

اجتمعنا نحن الستة لنضع لنفسنا مخططاً نسير عليه.

في نصف الساعة الأول استكشفنا المكان وكان دليلنا لذلك حاتم فقد قضى طفولته في هذا المكان على حد قوله.

دخلنا إلى قلعة قديمة تتربع على الضفة الجنوبية للنهر، قد هُدم نصفها تاركةً وراءها عبث الزمان وقصصاً تحمل بين طياتها تاريخ حب وحرب ونيرانٍ أحرقت مشاعر شتى، ويقابلها في الضفة الشمالية أطلالاً وأسواراً لم تكن أحسن حظاً من جارتها، يربط بينهم جسر صخري قديم، يمتد على عرض النهر، قد شقَّ الياسمين صخوره معلناً هدنة متأخرة، يرتفع نبات الزان لمترين أو أكثر على ضفتي النهر اللواتي شكلت الأحراج الطبيعية فيها صوراً جميلة لنباتاتٍ لم أراها مسبقاً، نقشنا على شجرةٍ أسمائنا وتاريخ نقشها، وجلسنا في ظلها نلتقط بعض أنفاسنا.

كان نسيم الربيع دافئاً مليئاً بالروائح العطرة، والفراش يملأ ما حولنا، نظرت لسارة، شعرت بأن شيئاً ما لم تكن مرتاحة له.

أشارت لي بطرف عينها ومشت عدة خطوات تقطف بعض الزهور لكي لا تثير الانتباه.

سألتها :ما بك؟

قالت وعلامات الغيرة قد بانت على وجهها.

- نظرات ياسمين لك لم تعجبني، ما الذي تخفيانه عني؟

لأول وهلة شعرت بالفرح، الغيرة هي أكبر دليل للحب.

حاولت أن أُقنعها أنه لا شيء، لكن كيف لحديث حبٍ مثلي أن يخفي كذبه، أمسكت يدها وبخطوات قصيرة أخبرتها بكل شيء وبأن لا ذنب لي بذلك.

"عندما تعتلي الغيرة فكر النساء يصبح الشك هواية لديهنَّ، ومع مرور الأيام تتحول هذه الموهبة إلى نكد وأسئلة دائمة، وبما أن الغيرة دليل الحب فيجب علينا معشر الرجال أن نقتنع بأن ازدياد النكد هو دليل ازدياد الحب"

-حبيبتي دعينا منها فهذا اليوم لن يتكرر، ابتسمتُ في وجهها وجددتُ قسم الحب لها، فضحكت حتى ابتهجت عروقي.

كنت أنانياً بحبي لها فلم أبقِ لغيري أي زهرة من حولي إلا جمعتها وأمطرتها فوقها، ما أجملكِ ياسارة وأنت تزينين أزهار الربيع!

ارتسمت ابتسامة خفيفة على وجه سارة، ودمدمت بكلمة "أحبك" وذهبت مع صديقة لها برفقة حنين، وأكملنا أنا وياسر وحاتم وبعض رفاقنا أحاديث طِوال.

ليتكِ تعلمين أن أحاسيسي تجمعت في عيوني منذ مصادفة وجهكِ، لتنهال تعابيري الصامتة تُلهم أناملي لترسم ملامحك بكل حب...

كنتِ وحيِيَ اللطيف، كانت تفاصيلكِ تنشتل روحي مني، وتعيد لنفسي كل لحن قديم يتجسد على أوراقي.

ومع غروب ذلك اليوم جلسنا في مقاعدنا ضمن الحافلة وقد نال التعب منا، وضعت رأسها على كتفي وغفت كطفلةٍ تلوذ بدفء أبيها.

يعم الصمت طريق عودتنا، وتغمض الأجفان إلا عيناي اللتان بقيتا كجنديٍ أخذ على عاتقه حماية وطن تربى على حبه.

****

اللقاء الأخير

كانت أيام الصيف مملة وقاتلة بالنسبة إلي، على عكس من هم في عمري.
في الماضي القريب لم يكن يربطني بسارة سوى معرفة طفولة أو حتى صداقة، ومع ذلك كنت دائم الاشتياق لها لكني الآن أنتفض شوقاً لها في كل ساعة تمر عليّ دونها.
أمي كانت مستاءة جداً من هذا الحب، وإلى أين سيتجه بي، أما أبي فلم يكن يعلم من هي هذه الفتاة لكنه على دراية من عشق ولده.
لم أكن أخرج من المنزل إلا لملاقاة ياسر أو حاتم، أو اللقاء بهم في منزلي، غير ذلك كنت أقضي معظم وقتي في غرفتي بين دفاتري والروايات التي تحملني بين طياتها من عالم إلى آخر.
أما الليل فأقضي أغلب ساعاته بالتحدث مع سارة وإيجاد الفرص لألتقي بها.
في الشتاء كنت أقضي معظم يومي في الجامعة، كنا نلتقي بين الحين والحين، نقضي أجمل ساعاتنا بين حدائق مدينتي وعلى شاطئ فراتها نتغذى على كلمات الحب بيننا، ونعتاش على نظراتٍ تطفئ نار الاشتياق والبعد.

حتى جاء ذلك اليوم الذي رآني به والدي في إحدى الحدائق مع سارة دون أن أراه.
عدّت لمنزلي أحمل ابتسامتي الدائمة على وجهي، لكن لقاء أبي وأمي لم يكن كما أعدتُّ عليه.
لم نكن أنا وأبي كصديقين، لم أتجرأ يوماً على مصارحته بحبي لسارة، أو حتى التحدث معه في أموري الشخصية، لم أشعر بالارتباك يوماً كما شعرت به تلك

اللحظة التي سألني بها عن علاقتي بسارة، لم أرَ أبي يوماً بعصبيته تلك، لم يكن راضٍ عن تسكعي مع الفتيات في الحدائق، وما زاد غضبه أنها ابنة جيراننا وإن شاهدنا أحد من شباب الحي ستبدأ ألسنة الناس بتأليف الحكايات والأقاويل.

في حيّنا لم نكن مجرد جيران، كنا نشكل خليطاً اجتماعياً أشبه بعائلة واحدة تسكن عدة بيوت.

احترام العادات والتقاليد واحترام الجار كان عنواناً للمحاضرة التي تلقيتها من والدي ذلك اليوم، طلب مني عدم اللقاء بها أو التحدث معها إلى حين خطبتها إن تم ذلك، وقد كانت أمي تؤيده بكل كلمة يقولها.

بعد أيام عرضت عليّ أمي أن تخطبها لي إن كانت ظروفها تسمح بذلك، فقلت لها يومها إننا اتفقنا على تأجيل كل شيء لِما بعد التخرج، فقالت إذاً عليك عدم اللقاء بها لأن ذلك سيتسبب بمشاكل للطرفين.

أما في الحقيقة فسارة كانت ترفض فكرة الخطوبة كلما تحدثنا بهذا الأمر دون أي مبررات، فقط تكتفي ب(أسباب عائلية)، حتى اشتدّ النقاش بيننا يوماً في إحدى المقاهي التي كنّا نلتقي بها، قلت لها يومها:

هل ندمتِ على شيء؟ هل تراجعتِ عن قرارك؟ لماذا تأجلين الخطوبة؟ ماهي نهاية علاقتنا برأيكِ؟ لنخطب الآن ونتزوج بعد أن ننهي جامعتنا.

نظرت إلي وقالت بسخرية:

ما أسهل الأمر عندك، هكذا بكل بساطة تسير الأمور، هل برأيك أن أبي سيوافق على تزويجي من شابٍ دون عمل وفي بيت أهله، وليس لديه الدخل

الخاص؟، لا أجمل من يومٍ تخطبني فيه، لكني أعرف أبي كيف يفكر وأعرف أنه لن يقبل إلا برأيه، لذلك انتظر حتى نتخرج، لا تدري لعل الله يكتب لك الخير بعملٍ ما، وفي ذلك الوقت أبي لن يرفضك.

كلماتها لم أكن قد فكرت بها مسبقاً، حبي لها وشوقي الذي يزداد يوماً بعد يوم، كانا قد غيبا عني العديد من الأمور، ما دار بيننا والصمت الذي أحاط بنا، نزع مني بقايا كلماتٍ كنت قد جهزتها.

خرجتْ بعدها وتركتْ معي كلماتٍ كانت كافية لعودة الحيرة والتردد إلي.
ذهبت لحاتم يومها كان اليأس والحيرة يسيطران عليَّ، ذهبت إليه لكي يخفف عني، فإذا به يضم صوته لصوت سارة فهذا برأيهِ أمر منطقي، وبدون فائدة تركت حاتم واتجهت للبيت مع حلول الظلام.
عندما رآني أبي على هيئتي تلك، وشعر أن شيئاً ما قد كسرني جاء إلى غرفتي وتحدث معي، فأخبرته بما دار بيني وبين سارة.
نظر إلي وقال :
عندما كنت في عمرك كنت لا أملك شيئاً حتى شهادة جامعية.
ولأن أمك لم تستطع انتظاري أكثر، اضطررت للتطوع في الجيش كوظيفة أحملها معي عند ذهابي لخطبتها....
الحياة يا بني ليست عادلة، هي تعطيك شيئاً يتمناه الكثيرون فيكون هو سبب تعاستك، نحن الرجال حين نعشق نقوم بأشياء ضد أفكارنا، نتنازل عن أي شيء يُعيق علينا تقدمنا حتى لو اضطررنا للكذب على أنفسنا بتلك الأفعال، يابني إنّ الرجل لا يعيبه شيء لكن جلوسه بدون عمل يلغي تسميته برجل،

تأكد إن كانت سارة لك ستبقى لك لو وقفت كل الدنيا في وجهك، وإن لم تكن لك، حتى الهواء سيكون حائلاً بينك وبينها، تخرج من جامعتك الآن " لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا.

ضاقت الدنيا عليّ أكثر، حتى أبي وقف مع كلمات سارة ضدي،
وكلما انتهى يوماً دون أي إنجاز مني كانت تضيق عليّ الحياة أكثر،
في الآونة الأخيرة لم أعد ألتقي بسارة كثيراً، حتى أثناء الحديث معها بتُّ أشعرُ بحواجز شتى تقف بيننا.
في نهاية آذار، أعلنت وزارة التربية عن مسابقة لتوظيف جامعيين بصفة مدرسين، كان الجميع بانتظارها، لكن توقيتها لم يسعفني فالشهادة مطلب أساسي وأنا لم أحصل عليها بعد، وعلي الانتظار لحين مسابقة أخرى ولكن متى؟، إن كانت آخر مسابقة أقيمت منذ ثلاث سنوات.
أضحكني العدد المطلوب لمحافظتي، فمن جميع الاختصاصات قد طلبوا عشرين شخصاً وكان عدد المتقدمين يومها قد تجاوز الثلاثة ألاف متقدم، أي أن الطوابع التي استخدمت في تلك المسابقة تكفلت مرابحها برواتبهم لعامٍ كامل.
غداً تُكمل سارة عامها الواحد والعشرين.
في العام الماضي والذي قبله كانت لنا خصوصية هذا اليوم، لكن في هذا العام أحببت أن أقدم لها مفاجأة غير اعتيادية، طلبتُ المساعدة من حنين للخروج مع سارة، لأن هذا العام يصادف الثالث من ايار يوم الجمعة ولم تكن سارة تستطيع الخروج أيام العطل، ولأن هذا اليوم سيكون تقريبا آخر لقاء بيننا حتى وقت الامتحان، أردته أن يكون مميزاً.

في اليوم التالي وبعد اتفاق مسبق مع سارة، ذهبت حنين لمنزل سارة وخرجتا معاً لمكان اللقاء، الذي كنّا أنا وياسر قد رتبنا بعض الأمور فيه.

أرض الكافتيريا قد زينتها أوراق الورد الملونة، وكُتبَ اسم سارة على أحد الجدران بواحد وعشرين بالوناً أحمراً، وإحدى وعشرين شمعةً كتبوا اسمها أيضا فوق الطاولة.

دخلت علينا كأن ورود العالم كلها تشكلت لتصبح إحدى وجنتيها، وأن نجوم السماء تفجرت لتشكل لمعة عينيها ونفذ الذهب حين اكتسى شعرها صفاره، وتواضعت سماء ايار لزرقة عينيها، أي أبجديةٍ ستسعفني الآن ؟ ألحان طقطقة ورق الورد تحت قدميها تشكل معزوفة لدخول الجنة.

مع بدء معزوفة عيد الميلاد، وتصفيق من كانوا متواجدين، وقبل انسحاب ياسر وحنين من جلستنا ولأن هديتي لم تكن اعتيادية هذا العام، قدمت لها خاتم الخطوبة.

مرت ثوانٍ قليلة دون أي ردة فعل منها، كانت فرحة ياسر وحنين ظاهرة أكثر مما أبدته سارة، حتى بدأ الإحباط يتسلل إلى قلبي.

نظرتُ إليها وما تزال يداي تحملان علبة حمراء فيها كل أمنياتي.

ولكن وبدون أيِ كلمة أو أي ردة فعل ذهبت...

اقتلعت ما تبقى من روحي عند قيامها ورحيلها، قمت بإعادة أمنيتي الأخيرة إلى جيبي، طأطأت رأسي من شدة ألم الخذلان.

لحقت حنين بسارة وحاولت جاهدة إرجاعها أو الاستفهام لما حصل لكن دون فائدة.

خرجتُ بعد أن عم الصمت عالمي، واشتعلت براكين العالم في صدري، وانكسار قلبي تخرُّ له الجبال.

أكملت ما تبقى من يومي مع علبة سجائرٍ ونهر الفرات الذي تبللت لحيته من بكاءه لما آلت إليه حالتي، أغلقت هاتفي بعد أن ألحَّ ياسر عليَّ بالاتصال، وفارقت الحياة لساعات حتى انتصف الليل وأنا أُجالس النهر، لم تبقى دقيقة واحدة من حياتي إلا واسترجعتها ذلك المساء، لم أستطع فهم ما حصل ولماذا فعلت ذلك، سحقت بخطاها تلك مشاعري دون رحمة، لماذا قست علي كل هذا لا اعرف ؟.

عدّت لمنزلي جاراً خلفي هزيمةً في حربٍ لم أخضها.

وقررت يومها تحويل الحب الذي في قلبي لكره سيطاردها إلى ما بعد القيامة.

حبات البن لم تعد ذات فائدةٍ فالوجع عندي وصل للقلب.

استيقظت على رنين الهاتف وقد تخطت الساعة الثانية عشر ظهراً.

ألحّ عليّ ياسر بالخروج والمجيء للجامعة، فهناك أمراً مهماً ويجب عليّ الحضور، التقيت به مع حنين عند باب الجامعة وجلسنا في ساحتها دون كلام.

حاولت أن أظهر لهم لامبالاتي بما حصل وأن الله بالتأكيد قد اختار الخير لكلانا، ماهي إلا ثوانٍ حتى ارتسمت ابتسامة لاشعورية على وجهي ، جلست سارة دون أي كلام بجانبي وأمسكت يدي ووضعت رأسها على كتفي ودمدمت (بحبك)، سحبتُ يدي من يدها و نظرت إليها وقبل أن أمشي مسك يدي ياسر وأجلسني وذهبَ مع حنين .

الضياع الذي يُصيبنا يجعل منا عديمي قرار، لكن ليس دائما فأحياناً نخضع لما

تميل له النفس، فبعد أن اتخذت قراراً بترك سارة بالأمس ها أنا الآن أجلس معها دون حولٍ مني ولا قوة.

أبقيت على صمتي حاجزاً في حنجرتي آلاف كلمات العِتاب والغزل، حتى بدأت هي بالحديث:

أريد منك أولاً أن تسامحني لتصرفي الأحمق بالأمس، وأن تسمعني حتى النهاية وبعدها قل ما شئت، أبي رجلٌ ذو عقلٍ صلب ذو طباعٍ مادية يحسب حساباً لأي شيء، وإن اتخذ قراراً ما، يبقى على قراره حتى لو تغيرت الظروف، هذا أولاً...

ثانياً كيف تريد مني أن ألبس خاتم الخطوبة دون معرفة عائلتي؟

لقد أمضيت حياتك من غير منازع لك على عرش والديك، قبل أن تطلب الشيء يأتيك، لكن أنا لست كذلك، أنا لا أستطيع فعل شيء دون معرفة عائلتي، أنا أحبك ولن أتخلى عنك بسهولة، وسأحارب لأجلك، لكن أنت كن معي وكن مع نفسك، أنا لم أطلب منك شيئاً سوى أن تكون قدماك ثابتة عند المجيء إلينا، لا أريد لرفض أبي لك أن يكون قطعاً أبدياً بيني وبينك، قم بأي عمل بعد تخرجك، ليس من الضروري أن تصبح معلماً في إحدى المدارس أو المعاهد.

أبي لن يقبل، ولا أنا، ولا أنت أن نتزوج وأباك هو من يصرف علينا، حمقاءٌ كنت البارحة معك، لكني لثواني لم أستطع فعل أي شيء إلا الهروب، آسفة وضعتك في موقف محرج أمام صديقك، لكن أنت من أجبرتني على فعل ذلك.

كلماتها لم تكن تكفي لإقناعي بالرجوع عن قرار ليلة الأمس ككلمة أحبك التي

نطقتها عندما وضعت رأسها على كتفي.
حملتُ علبة سجائري ونظرة إليها نظرت مودعٍ دون أن ينطق فمي حرفاً واحداً ومضيت في دربي.

الدنيا دوماً تسير ضدنا لأنها مجرد دنيا، لكن نحن من نصنع ابتسامة لأنفسنا ونصنع أياماً تسير معنا باتجاه واحد، علينا فقط اتخاذ قرارٍ مناسب في وقت مناسب والتمسك به حتى لو كان هذا القرار هو سبب تعاستنا مستقبلاً.

الله لا يعطيك كل شيء لأنه يحبك، ويحب أن يراك محتاجاً له دوماً وتذكره دوماً، لذلك توكلت على الله في أمري ومضيت أصنع الأيام، فشلت مراراً، سقوطي كان أكثر بكثير من صمودي في وجه الصعاب، لكن أنا ممتن لكل سقوط أحدث في نفسي درساً و وضعني في نقطة بداية جديدة.
مرَّ آخرُ شهرٍ لي في الجامعة كأنه كابوس كتم على أنفاسي.
مع انتهاء آخر مادة في امتحاننا الأخير أيقنت أني متأخرٌ عن زملائي وأن تخرجي سيمهر في العام القادم بدلاً من هذا العام.
اتصل بي ياسر فرحاً ليخبرني أن النتيجة للمادة الأخيرة قد ظهرت وأنا وهو قد نجحنا في هذا المادة .
تخرج ياسر من الجامعة وتخرجت حنين وياسمين ولم يبقَ معي سوى حاتم الذي شاركني بمادتين علينا اجتيازهما في الفصل الدراسي القادم.
في تلك الفترة لم أتكلم مع سارة سوى مرة واحدة حين توفي جدها من أمها، فإذا بها تتصل بي لتطمئن على نتائجي ولتخبرني أنها قد تخرجت من الجامعة.
كان البرود الخارجي في كلامي يطفئ نار اشتياقها لي، أما عني فكنت أحترق

شوقاً في كل ليلة وأنا بعيدٌ عنها.

لكن كان لابد من المسير على قراري حتى آخر رمق من شوقي.

لم يكن الصبر من حليف ياسر وحنين، فقد تمت خطوبتهما قبل ذهابه للخدمة العسكرية.

أما حاتم فقد افتقد ياسمين كثيراً بعد سفرها لكن مع عدم مقدرته على الزواج في الوقت الراهن ومع مرور الأيام انتهت علاقتهما بزواج ياسمين.

وجدتُ عملاً في مكتبةٍ لبيع القرطاسية ومستلزماتٍ جامعية .

واستمريت بهذا العمل لما بعد تخرجي من الجامعة.

كان التواصل بيني وبين سارة قليل جداً لكن الشوق يقتل كلانا.

إلى أن عرضت علي أمي صورة لفتاة لم أعرفها من قبل .

سألتها من هذه ؟؟

قالت: هذه ابنة أخت أم معتز، عمرها عشرون عاماً، تخرجت من معهد إعداد المدرسين وهي من عائلة معروفة ... ها ما رأيك؟؟

كانت أمي بين الحين والحين تتطرق بحديثها إلى الزواج، حتى بدأت بالضغط عليّ بأن أفكر بالزواج جدياً.

لم تكن جذور سارة في قلبي هشةً، ولم تكن قد خسرت شيئاً من حبي لها، كانت تحاول الاتصال بي دوماً وكان حديثي معها سطحياً لكن قلبي كان يتمزق شوقاً لسماع صوتها، حتى اتصلت بي بإحدى الليالي وقالت إلى متى؟

فقلت لها حتى تستأذني عائلتكِ بقدومنا لخطبتك.

لم تكن سارة مجرد فتاة أحببتها فقط، كانت حلم طفولة وأمنية سنين وعهدٍ وإشراقة مستقبل، بعد عدة أيام أتصلت بي وقالت إن الأمور على ما يرام وإن أبي بانتظاركم متى شئتم.

أتصلت أمي بهم وحددت الخميس القادم موعداً لليوم المنتظر.

اليوم كان يمضي بسنة، والشوق للقائها كان يحرق قلبي، حتى حان وقت خروجنا وذهابنا إلى بيت أهل سارة.

كان باستقبالنا والدها وأخاها الذي يصغرها بثلاث سنوات.

والدها صاحب الوجه الجاف والصوت الثخين والكرش المتدلي كان أكبر حاجز بيني وبينها وكان عليّ اجتيازه للفوز بسارة.

بعد نصف ساعة من جلوسنا افتتح أبي موضوع الخطبة من سارة وشرح لأبيها عني، ولأني اكتسبت خبرة جيدة في لباقة الحديث لم أدع لأبيها أي سبب للرفض.

لكن العادة سرت أن الرد بعد أسبوعٍ من يوم الخطبة، ولكي يتسنى لأهل الفتاة السؤال عن الشاب وأخلاقه، لكن بحكم أننا في حيٍّ واحد وأننا نعرف بعضنا جيداً اختصرت المسافة.

اتصلت بي سارة والفرحة تملأ صوتها لتخبرني أن أباها قد وافق على خطبتنا وأن أمها ستخبر أمي بذلك في الغد.

في اليوم التالي أتصلت والدة سارة بأمي وأخبرتها بقبولهم وعلينا الذهاب للاتفاق على بعض الأمور.

لم يكن لوالد سارة ذلك الجشع الذي كنت أنتظره، بل إنه قابلنا هذه المرة

بابتسامة و وجهٍ مشرق، كان الفضاء لا يتسع لفرحتي وأخيراً فزت بسارة، لكنه اشترط علينا أن نسكن أنا وسارة بمنزل منفرد وهذا مالم يكن في الحسبان.

اعترض والدي على هذا الأمر وتناقشنا طويلاً لكن دون فائدة و وضع هذا الشرط لإتمام خطبتنا.

لم يكن الأمر بالسهل كيف لي أن أسكن بعيداً عن أمي وأبي خاصة أن لا أخوة لدي؟

حاول أبي مع أبيها مراراً للرجوع عن هذا الأمر لكنه لم يقبل.

تحدثتُ مع سارة كثيراً وهي بدورها حاولت مع أبيها لكنه لم يقبل،

وفي النهاية رفض أبي شرط أبيها وانتهى عنده موضوع خطبتنا.

قلت لأبي محاولاً إقناعه أن يتحدث مع والد سارة مرة أخرى لكنه رفض.

ثلاثة أسابيع مرت دون جدوى، الصخر قد يلين ورأس أبيها لا يلين.

أتصلت بسارة وطلبت منها أن تعيد الحديث مع والدها لعله يلغي شرطه لكنها لم تستطع وقالت أعرف أبي لن يقبل وإن تكلمت معه سيرفض الفكرة كاملة.

سارة حاربت من أجلي، لكنها انسحبت من حربها مع والدها في لحظة الانتصار، فبعد كل محاولاتها وإقناع والدها بي لم تستطع الاستمرار ورضخت تحت قرار والدها الأخير، أو أن والدها علم باستحالة تنفيذنا لهذا الشرط فاتخذه حجةً لإبعادنا من ناحية ولعدم كسر قلب ابنته من ناحية أخرى، لم يُبقِ لي والد سارة أي قرار.

لم يكن وضعي المادي يسمح بأن أشتري بيتاً أو حتى أستأجره، ولم يكن أيضاً

وضع عائلتي يسمح بأن أسكن في بيت آخر.
مرت ثلاثة شهور على ذلك، وكنّا كلما تحدثنا نضع اللوم على بعضنا، ونحاول إيجاد حلول يقبل بها الطرفين، حتى إني بدأت بفقدان الأمل لكني لم أيأس.
مع ربيع عام 2010 كررتُ محاولتي مع أبي بأن يتحدث مع أبيها مرة أخرى لعله يقبل هذه المرة ومع عدة محاولات وافق أبي أخيراً.

قررّ أن يأخذ معه الحاج حسين وبعض وجهاء الحي هذه المرة، لكي يضغط على والد سارة أكثر، لكن طلبه رفض رفضاً تاماً، وكانت هذه نقطة النهاية بيني وبين سارة.
حاولت سارة الاتصال بي كثيراً لكني كنت أرفض، كلما نظرت بعيون أبي أذكر كيف عاد يومها.
لم أرَ أبي قط بهذا الكم من الانكسار والخيبة، وهو الرجل الذي لا تُرفض له كلمة في الحي لمكانته واحترامه بين أهل الحي.
لقد اعتاد أن يكون شامخاً أبياً لم أكسر عنفوانه في حياتي أبداً، حتى لو كان الأمر مصيرياً بالنسبة لي.
لكن هذه المرة أعتقد أني أخطأت في حقه وأنا أعرف والد سارة بلسانه السليط و يباس رأسه وفوضوية كلامه، ومع ذلك دفعت بأبي إليه.
أتت سارة لمكان عملي وطلبت أن نلتقي للحديث عن أمرٍ مهم، لكني رفضت ذلك، فما الفائدة من لقائنا بعد كل ما حصل.

قالت لي يومها بأن شاباً تقدم لخطبتها وأن عائلتها بالكامل تحاول اقناعها بهذا الشاب، نظرت إليها والحزن يملأ وجهي وقلت لها:

افعلي ما تريدين، تركتها والدمعة تحرق مقلتي.

خسرت سارة وخسرت حلمي وخسرت كل شيء معها.

كانت تلك آخر مرةٍ أرى فيها سارة قبل أن أحتضنها بثوبها الأبيض...

****

بداية النهاية

الحياة مدرسة كبيرة تقدم لك دروساً يومية، من احتميت به وأنت خائف فلم يمنحك الأمان المرتجى، من جعل منك قطعة ثلج بعد أن قدمت له دفء الحب الصادق، من جازاك على سهرك بخيبةٍ كانت سبباً لأرقك، من كان بريقاً لعينيك فأصبح فجأة سبب دمعك.

دروس تسحق روحك، تأخذها، لتصنع منك روحاً قادرة على المواجهة والنسيان.

عندما وجدتُ نفسي وحيداً بين غمائم سجائري، ونظرات من حولي مليئة بالشفقة لما آلت إليه حالتي، يدخلون عليَّ ببطء، يطبطبون على جراحي، يلتمسون بعض نقاط قوةٍ ليخرجوني مما أنا فيه؛ فلا يجدون.

جاهدتُ نفسي على النهوض مجدداً فلم أستطع، عندها أدركت أني قد أصبحتُ بلا شعور ولا مشاعر، بلا بصرٍ أو بصيرة، بلا ماضٍ بلا حاضرٍ أو مستقبل.

علمتُ عندها أني قد أخطأتُ حينما أضعت كل طاقتي، ووضعت كل ما أملك من روح، وقطعت على نفسي جميع الطرق فأصبحتُ فجأةً وحيداً دون أي سبيل.

أصعب ما يمكن تخيله أنك ومع وصولك الذروة تجد نفسك قد عدت إلى نقطة الصفر، دون هدف تسعى إليه.

مرت ثلاثة شهورٍ تقريباً على زواج سارة من حسام وانتقالهم للعيش في دمشق حيث إن زوجها يعمل صحفياً.

بدأت الحياة تضخ بي بعضاً من روحها، خاصة بعد عودة ياسر وإنهاءه للخدمة الإلزامية.

ياسر بدأ بالعمل كمدرس للغة العربية في معهد خاص لوالده.
أما حنين وبمساعدة أحد أقربائها، وجدت لنفسها شاغراً لتصبح مرشدة نفسية في إحدى المدارس الإعدادية، ولم يبقى على موعد زفافهما سوى أيام قليلة، أما حاتم فقد قرر الالتحاق بالخدمة الإلزامية للانتهاء منها ومن بعدها يبدأ بتأسيس حياته.
بدأت بالتردد إلى المعهد الذي يعمل به ياسر لممارسة الحياة العملية، بالإضافة لعملي في المكتبة، أعيش وأتنفس، آتي وأذهب، أضحك وأحزن، حتى أن قلبي ينبض لكن دون أي طعمٍ للحياة.
أصبحت الحياة مملة والروتين احتل تفاصيل يومي، ولم أعد أهتم بأي شيء.
أصبحت جثة على قيد الحياة.

مع بداية عام 2011 كانت أوضاعي قد تحسنت نوعاً ما.
في إحدى السهرات كنت أتصفح كتاباً في غرفتي فأتاني صوت أبي من الصالة وهو يصرخ ويقول ((بجهنم الله لا يردك)).
نهضت من مكاني وذهبت لأبي لأعرف ما الأمر.
التلفاز مليء بالتهاليل والتكبيرات والأناشيد، وعلم (تونس) يرفرف في زاوية الشاشة.

سألت أبي عن الأمر فأجابني بأن الرئيس التونسي تمت إقالته ونجحت ثورتهم هناك، وقد بدأت شرارتها في مصر!
للحظة لم أعِ ما يقول، كيف تمت إقالة الرئيس، وعن أي ثورة يتكلم، جلستُ بجانبه ولم أتفوه بحرف واحد، فقط أنصتُّ لمذيعة قناة الجزيرة وهي تقدم

التبريك والتهاني بانتصار الثوار بتونس.

ماهي إلا أيامٍ قليلة حتى انتقلت العدوى لمصر ثم ليبيا، وبدأ ما يسمى (الربيع العربي) .

لم يبقَ رجل أو امرأة أو حتى طفل صغير إلا وأبدى برأيه تجاه الثورات التي حصلت، وتضاربت الآراء حول مؤيد لها ومعارض.

ولأني لم أكن أهتم بالمواضيع السياسية أدرت ظهري لتلك الأحاديث.

اجتمعتُ مع حاتم بأول إجازة له، وذهبنا لبيت ياسر لتهنئته بالزواج ومن غير أي مقدمات اتجه حديثنا لهذا الربيع العربي.

لقد أصبح شيئاً من حياتنا، لكن الأمر الجيد هنا أننا اتفقنا على قول (فخار يكسر بعضوا).

العدوى تنتقل بسرعة بين الشعوب، والتقليد الأعمى والفهم الخاطئ يقتل صاحبه.

جلسنا لتناول وجبة الغداء، هاتف المنزل يرن، رفع أبي السماعة.

لم يتفوه بغير كلمة(ألو)

أخذ(الريمونت كونترول)وبدأ ينتقل بين المحطات الإخبارية.

أناس تتجمهر في إحدى الأسواق يحملون أعلاماً وينادون بإصلاحات، تتجه الكاميرا لإحدى المآذن، إنه الجامع الأموي في دمشق أعرفه تماماً، وقف أبي وقد احمرَّ وجهه وقال :

-الله يستر ..

ثم أردف مخاطباً أمي(ماقلتلك يا أم يزن، هاد الكنّا خايفين منو).

هنا بدأ الأمر يتعقد بالنسبة لي، بالأمس كان الأمر يخص غيري ولا علاقة لي به، أما اليوم فيجب علي اتخاذ قرار إما أن أوافق هذا التغيير أو أعارضه.

-أبي ما رأيك؟

نظر إلي بتجهمٍ وقال : ((رأيي بشو؟ هدول شوية مخربين، قال بدهم إصلاحات!! ليه شبنا عين الله علينا عايشين أحلى عيشة.))

أبي الذي نادى بتنحي (الطغاة) في مصر وليبيا وتونس، وأسمى المتظاهرين ب(الثوار الأحرار) في تلك الدول، قال عنهم (مخربين) عندما وصل الأمر إلينا.!!

- لكن عندنا يجب تغيير بعض القوانين، وهنالك بعض الإصلاحات التي يجب أن تقوم بها الحكومة، ناهيك عن الفساد والفاسدين بالدولة، قلت تلك الكلمات لأبي فرد علي مقاطعاً:

((برأيك نخرج للشارع ونقطع أشغال الناس ونخرب الدنيا بهتاف ومظاهرات، بلدنا فيه حرية وفيك تقدم شكوى ضد أي أحد، أو حتى مسؤول إذا كان فاسد، وإذا كنت على حق تأخذ حقك إجباري عن الكبير والصغير، والكلام يلي قلتهُ ما بدي أسمعه مرة تانية)) .

ماهي إلا ثلاثة أيام وتحديداً بعد صلاة الجمعة بالثامن عشر من آذار لعام 2011 حتى خرجت أول مظاهرة في مدينتي.

لكن الأمر انتهى بسرعة وعددهم لم يتجاوز الثلاثين شخصاً تقريباً، استمر الوضع كذلك لشهر تقريباً حتى بدأت الحواجز الأمنية تقطع الشوارع ويتم تفتيش جميع المارة وكل من لا يحمل هويته الشخصية يتم اعتقاله، وعلى إثر

ذلك بدأت الأمور تزداد سوءاً، وبدأ بعض الشباب بتشكيل مجموعات يقومون بمداهمة الحواجز ليلاً، وبدأت أصوات العيارات النارية تقض مضاجعنا ليلاً وتعود الحياة لطبيعتها نهاراً.

يوم الجمعة كانت له خصوصيته، فما أن تنتهي صلاة الجمعة حتى تبدأ المظاهرات مع خروج الناس من الصلاة، هذه المرة المظاهرات طالت الحي الذي أسكنه.

عشرات المتظاهرين يجوبون الشوارع وينادون بإصلاحاتٍ ويطالبون ب (الحرية)، الكلمة التي ارتبطت مع جميع الثورات التي أقيمت سابقاً ولاحقاً.

ها هو أيمن يعتلي أكتاف أحدهم وبصوته الجميل وطبقته العالية، يجذب الناس للاشتراك بالمظاهرات، فمن منظم رحلات إلى منظم مظاهرات العمل واحد لكن النتيجة والهدف مختلفين.

ومع بداية شهر أيار للعام نفسه، سقط أول شهيد في محافظتي (معاذ) لا أعرفه لكن اسمه شكل شعاراً عندما حملته عائلته في تشييعه وكتبوا في بداية طريقهم (نريد معاذاً حيا).

وبدأت الأعداد بعدها بالتزايد وبدأت أصوات الاشتباكات تعلوا أكثر فأكثر.

وبدلاً من يوم الجمعة، أصبح في كل يوم مظاهرة وتشييع وأسماء كُتب لأصحابها الموت برصاص جيش بلاده.

اجتمعت مع أيمن في المكتبة وكان معنا ابن عمه (زياد) الذي استشهد بعد عدة أيام، أيمن أقسم يومها أنه لن يسكت عن دم من ماتوا في سبيل الحرية على حد قوله حتى يسقط هذا النظام أو يلحق بهم.

وقد أيده بقوله هذا زياد وبدأ بوصف كل من لا يخرج معهم بالخائن (والشبيح) وتسميات أخرى أبشع بكثير.

كان رأيي بذلك إني معكم لكن دون دماء، فسلسال الدم لن يتوقف بسهولة، والدماء لا تنجب إلا دماً، لكن من يجيب بعد أن وصل الحال إلى ما آلت إليه البلاد.

بدأ شهر رمضان تزامناً مع شهر حزيران، ومع ازدياد عدد المتظاهرين وكثرة تظاهراتهم وارتفاع عدد الشهداء من الطرفين، كان لابد من الإنهاء الفوري لتلك الأمور بأي شكل من الأشكال.

مما نجب عنه (الدخول الأول للجيش السوري)، ومداهمته لجميع المنازل واعتقاله العشرات، ونزوح الكثير من الشباب لمحافظات أخرى، ولأنه لم أكن قد شاركت من قبل في أيٍ من الأمور، لم يكن علي النزوح والاختباء، مما جعل اسمي مقيداً بين عشرات المعتقلين المنتظرين دورهم في التحقيقات.

لم يدم اعتقالي طويلاً أسبوعاً واحداً فقط، كان كفيلاً بجعلي أرتجف كلما رأيت عسكرياً في طريقي.

عدت لمنزلي بعد أن غرقت وسادة أمي بالدموع وشَحِبَ وجه أبي وهو يطرق الأبواب لنجاتي.

عادت الحياة لطبيعتها وعاد الناس لمنازلهم وعمَّ الهدوء أرجاء محافظتي لشهرين تقريباً، وأقرت الدولة بعض القرارات والإصلاحات للتخفيف من الغضب الشعبي.

وكانت من بين تلك القرارات عقوداً سنوية بصفة مدرسين بالوكالة، كان لي

نصيباً في إحدى المدارس الإعدادية.

لكن الهدوء لم يدم طويلاً، فما هي إلا شهور قليلة حتى ضربت محافظتي مجدداً موجة من الغضب والاحتجاجات، ومع قدوم الشتاء والأمطار هدأ الوضع في الشارع، واقتصرت المشاكل ليلاً فقط، بضرب بعض الحواجز الأمنية من قِبل من أطلقوا على نفسهم أسم (ثوار).

كانت الأمور أسوأ بغير محافظات ورائحة الدماء تفوق رائحة الورود في الحدائق.

ولأن الموت عدوى مثل باقي الأوبئة امتدت أيادي الموت لتصل أطراف محافظتي، وبدأ الثوار بالسيطرة على مراكز المدن المحيطة والأرياف، نبأ الموت أصبح اعتياديا ومسموعاً بشكلٍ دائم، وصوت الطائرات الحربية يلغي دور الحمام في سماء محافظتي.

هجر الفرح أرجاء البيوت، واستُبدلت الضحكات والأغاني ببيوت العزاء المتناثرة هنا وهناك، حتى أسماك الفرات بدأت بالرحيل تدريجياً وهجر الفراش ضفتيه واحتل الجراد خلايا النحل وأرجاء الحدائق.

امتدّت التحركات والضربات حتى طالت الأحياء القريبة، كان دوي الانفجارات يقترب تلقائياً، وأعداد الشهداء بتزايدٍ مستمر، وجداول أسماء المعتقلين تضم كل يوم صفحة جديدة.

استيقظنا في التاسعة صباحاً على صوت انفجار صدّع جدران منزلنا، وجعل زجاج نوافذه يتطاير في أرجاء المنزل، وتتالت بعدها أصوات رشقات رصاص دامت لبضع دقائق ثم هدأت.

خرجت في الظهيرة لأستقبل نبأ استشهاد أيمن بعد أخيه وابن عمه (زياد).

قُتِلَ بما دعا إليه، مات برصاصة كان يقول أن بغيرها لن يُسقط النظام، ولن ننل حريتنا إلا إذا حملنا السلاح في وجه مغتصب الحريات.

خرجتُ لأداء واجب العزاء ومضيت بين صفوف المشيعين بجانب (عبد العزيز) أحد جيران أيمن، تعارفنا أثناء التشييع، لم أكن أعرفه مسبقاً وأثناء مسيرنا بدأ بالتوعد لأخذ الثأر لأيمن ونظر إلي وقال :

- النظام لازم يسقط لو ما بقي حدا منا.

أجبته باستفهام: من تقصد بكلمة منا؟

فقال جميع من تراهم عينك يجب أن نقف كرجل واحد لإسقاط هذا النظام، فأجبته ب (الله كريم).

وفي اليوم التالي وتحديداً في الثاني والعشرون من نيسان لعام 2012.

استيقظت على صوت ضرب الباب بقوة ودخول عناصر الأمن لبيتنا، وبدون أي تبريرات وضعوا(الكلبش) في يداي وغطوا رأسي بكنزتي التي كنت أرتديها، وانهالوا عليَّ بالضرب والشتائم، حاول أبي فهم ما يحصل، ومسكت بي أمي وبدأت تصرخ في وجههم تارةً وتناشدهم بتركي تارة أخرى، فدفعها أحدهم و وصفها بالعاهرة لأنها أنجبت شخصاً مثلي، وهددوا أبي باعتقاله إن لم يلتزم الصمت ويعود لبيته.

وضعوني بسيارتهم وبدأت بالمسير والابتعاد، وبدأت رائحة الريحان المزروع أمام بيتنا بالتناقص والذبول رويداً رويداً.

لم أكن وحدي بالسيارة كان هناك صوت لشاب آخر لم أستطع تميز صوته أو معرفته، حاولت أن أنطق لعل الأمر فيه خطأ ما، فانهالت عليَّ اللطمات من كل جانب، سمعت أحدهم يتوعدنا بالموت تحت أحذيتهم، وآخر يصفنا بالإرهابين والمجرمين والخونة.

ملايين الأسئلة خطرت في بالي لم أجد لها أي جواب.

فهل سيمنحني القدر فرصة أخرى للنجاة ؟

وهل سترافقني دعوات أمي ورضا أبي لتخليصي من بين أنيابهم.

لم يعد أمامي سوى الانتظار (لعل الله يُحدث بعد ذلك أمرا)

****

المعتقل

توقفت السيارة وأنزلوني حافي الأقدام مغطى العيون، يقودني أحدهم ضمن ممر ليس بطويل، ثم أنزلوني على درجٍ ملتف حتى بدأت رائحة الرطوبة تملأ أنفي.

فكوا عني (الكلبشات) وبضربةٍ من قدم أحدهم وجدت نفسي مفترشاً أرض الزنزانة بالقرب من أحد الأشخاص الذي كان معي بالسيارة.

رفعت كنزتي عن وجهي، تأملت المكان ووجه صاحبي الجديد الذي تكحل جبينه ببعض الدماء، جلست سانداً ظهري إلى الجدار دون كلام.

ماهي إلا دقائق قليلة حتى أتى عسكري وفتح الباب وقال : من منكم (سامر)؟ فرد عليه الذي معي، فأخذه وتركني أتخبط بأسئلة لا جواب لها، والحيرة والقلق يسيطران عليّ.

مضت ساعة تقريباً قضيتها أتأمل جدران المكان، تقديراً للمسافة المقطوعة وشكل العسكري ولباسه، أنا الآن في مبنى الأمن العسكري ذو السيط السيء والمعروف بأنه لا خروج لداخله.

فُتح الباب من جديد ودخل سامر وقد غطت الدماء معالم وجهه.

في بداية الأمر لم أستطع الاقتراب منه لكني تشجعت في النهاية وتقربت منه عارضاً عليه مساعدتي في مسح الدماء.

اقتربت الشمس من منتصف السماء، لتدخل بعض أشعتها من خلال نافذة حديدية في أعلى الجدار.

لم نكن حتى الآن قد تبادلنا أطراف الحديث أنا وسامر.

لكنه بادر بسؤالي بصوت منخفض:

-ما الذي أتى بك إلى هنا؟

رفعت رأسي متأملاً وجهه المدمي قلت له:

- لا أعلم ... أخذوني من منزلي دون سبب لا أدري ما الأمر.

فُتح الباب من جديد ودخل نفس العسكري، نظر إلي نظرة حادة وقال لي:

-وجهك نظيف ... وهذا الأمر لا يعجبني، تعال ولا تخف.

أخذني وأدخلني لغرفة مجاورة تحتل صورة الرئيس معظم جدارها الأمامي، ويقبع تحتها رجل يرتدي طقماً أسود اللون وبجانبه عسكري يجهز أوراقاً.

وقفت على بعد مترين من الطاولة أنتظر بدأ الكلام.

سألني المحقق :

-أنت يزن أحمد المحمود؟

-نعم سيدي..

- والدتك صفاء النوري ؟

-النويري سيدي صفاء النويري

-شو مواليدك ؟... حزيران ٨٦ سيدي.

- لك إنت شو جابك لهون ؟ شو تشتغل؟

أحسست أن بريق أمل يدق باب الفرج لأخرج من هذه المصيبة.

أجبته بتفاؤل:

-أستاذ مدرسة سيدي بمدرسة عياض الإعدادية.

- شو تشتغل كمان ؟

- بمكتبة جنب كلية العلوم لكن بهالفترة قليل جداً ترددي عليها سيدي.

استدار مخاطباً العسكري الذي انشغل بكتابة كل حرف قد قلته.

لك هاد مين؟ شو جابه لهون...؟!!

يزن المحمود عامل في الصناعة ومواليده ٧٩!!.

حمدت الله على ما سمعت وأيقنت أني سأعود لمنزلي فوراً.

ضغط المحقق جرساً فدخل العسكري و وقف بجانبي.

خاطبه المحقق قائلاً .

-وينو يزن المحمود ؟

رد باستغراب : جنبك سيدي !!

رد عليه غاضباً : لك هاد غير هداك هلأ شو بدنا نحكي للفرع بعد ما رفعنا الأسماء، خذو وروح من وجهي .

أعادني لزنزانتي بوجهي النظيف لكن أسفل ظهري قد أحمر من ركلته المعتادة عند دخول الزنزانة.

نظر لي سامر وغمز بعينه مستفهماً عما حصل؟

قلت له بفرحة لم أخفيها :

أعتقد أنه ثمت خطأ، أعتقد أنه تشابهٍ في الاسماء.

وبعد ساعة تقريباً دخل علينا العسكري ذاته حاملاً بيده (الكلبشات)، قيد يداي إلى الخلف وسامر أيضاً وأمرنا بالمسير.

أيقنت أن القدر هذه المرة أيضاً لم يتخلَّ عني، وأن بيني وبين مسح دموع أمي خطوات أسيرها عائداً للمنزل.

جمعونا مع خمسةٍ آخرين و وضعونا في باص أبيض صغير يغطي الشبك الحديدي جميع نوافذه واتجه بنا لمكان غير معلوم، حتى وصلنا إلى مبنى القيادة المركزية لقوى الأمن العسكري.

أوقفونا بممرٍ وبدأوا بتفقد أسماءنا واحداً تلو الآخر، وبعدها أنزلونا لزنزانة كبيرة هذه المرة وفيها عشرة أشخاص آخرين.

لم أعرف منهم سوى شخصاً كنت أراه دائماً مترأسا المظاهرات، تعرفت عليه بصعوبة بسبب الكدمات والجروح التي ملأت وجهه، أما البقية فلم يكونوا أفضل حظاً منه.

وقف الجميع عندما فتح الباب علينا وقاموا بوضع الطعام على الأرض، قصعتان كبيرتان تحوي إحداهما على برغلٍ مسلوق والأخرى مرقة حمراء لا أدري لأي طبخة تعود، ومع بعض أرغفة الخبز اليابس .

تذكرت أمي وهي تعد لي أكلتي المفضلة(الملوخية)، وأنا أتعهد لها بأكلها كلها.

سألني الذي بجانبي وكان قديماً في تلك الزنزانة.

- ماهي تهمتك ؟

أجبته ب (يزن المحمود).

فرد عليّ: تهمتك أخي وليس أسمك

أجبته ثانياً : تهمتي أني يزن المحمود لا أعرف غير هذا، أعتقد أنه تشابه بالأسماء وإن شالله سأخرج قريباً ...

ضحك وقال: منذ اثنان وعشرون يوماً أنتظر وأنا أيضاً تشابه أسماء واستمر بضحكته اللعينة...

أي تفاءل قد منحني إياه هذا الأبله؟ بالتأكيد إنه مخطئ.

لكنه لم يكن مخطئاً ...

لا أعلم ماحل به بعد أن رحل من زنزانتنا إلى أخرى في اليوم الثالث من وصولنا، بقيت في تلك الزنزانة ثمانية وعشرون يوماً، قضيت معظمها منزوياً على نفسي أُعالج ببقايا كنزتي بعض جراحي التي ارتسمت في جميع أنحاء جسدي.

كل أمنيتي وقتها أن يكلمني أحد لأخبره أني لست الصنائعي ذاك، وأني أصغره بسبعة أعوام وأنه ثمة حرف ياء في كنية أمي قد ينتشلني من بين أنياب هذه الزنزانة اللعينة.

وصلني من أحد العساكر أنّ والدي ما زال يطرق الأبواب للنجاة بي، لم يفقد الأمل مثلي بعد، وأنّ أمي أتت لزيارتي مراراً لكن لم يسمح لها بذلك.

ذات صباح دخل علينا أحد العساكر يحمل بيده ورقة وبدأ بذكر الأسماء، ذكر اسمي أثناء كلامه وقال : (يلي طلع اسمو ...)

فقاطعه أحد زملائه وأخذه وذهبوا..

يارب... يارب ... إفراج، يارب مالي أي ذنب..

يارب ..رحمتك

عاد ثانية وقال : (يلي طلع اسمو يلحقني).

تجمعنا بساحة المبنى ثم صعدنا نفس الباص الصغير الذي أتى بنا لهذا المكان المرعب.

كنا تسعة أشخاص بيننا رجل كبير يتعدى عمره ستين عاماً، أما الباقي فجميعنا

تتراوح أعمارنا بين العشرين والثلاثين...

بدأوا بطمس عيوننا وتكبيل أيدينا للخلف وبدأ الباص بالمسير ...

توقف الباص بنا بعد ساعة تقريباً وأنزلونا ثم قادونا لجهة لا أعلم إن كانت شرقاً أو غرباً.

سمعت صوت طائرة والصوت يقترب ونحن نقترب منه حتى بدا كأنها على بعد أمتار منا.

صعدنا ثانيةً لكن هذه المرة على متن طائرة حربية وبعد نصف ساعة تقريباً بدأت الطائرة بالإقلاع، يبدو أننا مهمين للغاية ليتم نقلنا بالطائرة هذه المرة.

عندما كنت صغيراً كنت ألوح بيدي للطائرات التي أشاهدها في سماء وطني، وأدعو الله لكي يكتب لي السفر على متنها، لقد استجاب الله لدعائي فهل يكملون معروفهم وينزعون هذه الخرقة السوداء عن عيوني لأرى وطني من الأعلى.

لا أعلم كم من الوقت بقينا معلقين بين سماء وطني وأرضه حتى وصلنا أخيراً، أنزلونا من الطائرة وتوجهوا بنا إلى حافلة صغيرة كان القماش الأسود فوق عيني قد نزل قليلاً مما أعطاني الفرصة لمشاهدة ما حولي بنصف عين، كل ما حولي يدل على أنني (بمطار المزة العسكري)، أووه...!! إنها دمشق ليتهم أعلموني بذلك لكنت ركزت حاسة الشم لدي لعلّي أشم رائحة سارة...

ركبنا الحافلة وبدأت بالمسير.

بعد ساعة تقريباً ومع حلول الليل وصلنا لمبنى قديم قد أحاطه سور شاهق، كنت وحدي الذي أرى ..لا أدري .. لعل غيري قد سمحت له تلك القماشة

السوداء برؤية مصيره الأسود الذي ينتظره.

لابد أنه سجن صيدنايا الملقب بالسجن الأبيض (لا أدري لماذا) لكنه لا يمتُّ للبياض بصلة.

ما إن وصلنا ودخلنا ذلك البناء حتى انهالوا علينا بالضرب والشتائم.

أعلم أننا قد أتينا بوقت راحتكم وأننا سنكون ضيوفاً ثقيلي الدم لكن لا حيلة لدينا ولا خياراً آخر، تجمعنا مع آخرين في غرفة أصغر من غرفتي، حتى اللحظة أتساءل كيف اتّسعت لأكثر من ثلاثين شخصاً؟؟

كنا نجلس تارةً، ونقف ليجلس غيرنا تارةً أخرى.

ولا تفوت نصف ساعة إلا وأحدهم يفتح علينا الباب ويرمينا بالماء، ولأنني بالمنتصف نلت أقل نصيبٍ من الماء.

فقدت الأمل من الخروج، لم تسعفني السبع سنين التي يكبرني بها عامل الصناعة ذاك، ولا حرف الياء في كنية أمي.

أمي... هل أخبرها ذلك العسكري أنه قد تم ترحيلي إلى مثواي الأخير ..؟ هل سأراها مرة أخرى؟

وأبي هل مازال يطرق الأبواب بحثاً عمّن ينصفني؟

أين ياسر الآن؟

وحاتم هل حمل سلاحاً ضد أبناء شعبه؟

أين سارة؟ كم أحتاج إليها الآن.

ما هو مصيري المنتظر؟

متى يبدأ التحقيق والتأكد أني لست يزن المحمود الذي يبحثون عنه؟

عشرات الأسئلة تضرب دماغي كل لحظة ولا أجد جواباً واحداً لها.

في اليوم الثاني وزعونا من جديد، لا أدري ماحل بالآخرين لكن أعتقد أنه المصير نفسه.

وضعوني بغرفةٍ صغيرة جداً (المنفردة) لا تكاد تتسع لقطة مع جرائها، يوجد بها بطانية بنية اللون وكأس صغير فارغ وبعض جحور النمل.

ماهي إلا دقائق حتى جاء أحدهم وفتح الباب وأفرغ عليّ دلواً من الماء كان نصيبي بالكامل، الذل يحيطني من كل جانب، واليأس أكل همتي وقوّتي ولم يعد باستطاعتي الصبر أكثر من ذلك.

مرت ثلاثة أيام على مكوثي في هذا المكان.

لم يتكلم معي احد سوى العسكري الذي كان كلما أتى يشتمني وهو يضع الطعام لي، أقصد حبات الزيتون صباحاً مع كسراتٍ من الخبز، وبعض البرغل النيء في المساء، أُجبرت على التبول في نفس المكان الذي أنام فيه، لكن(سطل الماء) الصباحي كان كفيلاً بتنظيفي وتنظيف المكان.

اليوم أكمل شهري الأول، جاءني العسكري وأخذني لغرفة كبيرة.

يجلس المحقق على كرسيه، يحتسي قهوة الصباح، أمروني بالجثوِ على ركبتيّ وإخفاض رأسي.

سألني المحقق:

- إي يا يزن حكينا.

أجبته بكل ثقة:

- أنا لستُ يزن سيدي

انهال عليّ العسكري الذي خلفي بضربة على رقبتي الطويلة وأمسكني من شعري وضغط برأسي إلى الأرض حتى كادت عظام رقبتي أن تتفكك.

رد علي المحقق بغضب :

- أنت مش يزن المحمود ولا كلب؟

-نعم سيدي بس انا ماني عامل الصناعة يلي عم تبحثوا عنه.!

فرد عليّ مع ضحكةٍ خفية.

- ايوا حكينا عن عامل الصناعة شو اسمو وشو تعرف عنو؟

-ياسيدي في تشابه أسماء صدقني، بالفرع سألني المحقق وتأكد إني ماني يزن يلي بدكن ياه.

ضحك باستهزاء وقال للعسكري الذي خلفي

- شو رأيك ...شكلوه جاي بالغلط .

فرد العسكري بسخرية:

-أي والله ياسيدي برأيي نعتذر منو ونطلب له تكسي توصله لبيته .. وبهذه الأثناء انهال علي بالضرب وهو يكمل كلامه بأشد العبارات والشتائم، وتركني مدمّى بعد ضربي عدة ضربات بعصى ثخينة، آخرها كان على رأسي، أعتقد أن يدي قد كسرت.

توسلت إليه بعد أن رشقني بكأس ماء بارد:

-أرجوك ياسيدي والله ماني الشخص المطلوب وشو بتقول أنا جاهز والله بعمري ما طلعت مظاهرة ولا بحب يلي يطلعوا خربوا البلد ياسيدي..

قاطعني وقال لي:

-ايوا هدول يلي خربوا البلد شو بتعرف عنن مين هما وشو عملهم .

-أمرك سيدي حاضر راح أحكي كل شيء بعرفه عنن.

سيدي أول واحد هاد يلي ينظم المظاهرات أسمو أيمن الظاهر سيدي وساكن جنب السجن المركزي.

وفي ابن عمه زياد، هاد يشتغل بمطعم وكمان يجهز جماعات ويجيب أخبار للمتظاهرين، وفي كمان سيدي أخو أيمن بس ما بعرف شو أسمو، وفي ... وفي ...

وبدأت أذكر له أسماء من استشهدوا في هذه الحرب اللعينة.

ذكرت له اسم سامر أيضاً الشاب الذي أعتقل معي بنفس اليوم.

بدا أن المحقق مسروراً مني وأمر بإعادتي للوكر الخاص بي حتى ينظرون في أمري.

في اليوم الثاني أتاني أحد العساكر وأخذني للغرفة ذاتها.

كان هناك شاب عشريني وسيم معلق من يديه، وقد تدلى جسده العاري للأرض وآثار السياط قد أكلت من لحمه، نظرت بطرف عيني لوجه المحقق كان شخصاً آخراً، لابد أنهم يريدون التأكد من أقوالي، يجب عليّ التركيز بما أقول كي لا يختلف الكلام ويعرفون أني كاذب.

تركوني جاثياً دون أي حرف وأحضروا شخصاً آخراً وبدأت التحقيقات معه، من سياق حديثهم تبين لي أنه من مدينة حمص وقد تورط بتجارة الأسلحة، مارسوا عليه كل أشكال التعذيب، وفي كل مرةٍ يستخدمون بها طريقة تعذيب جديدة، ينظرون إلي كأنهم يقولون لي تعلم من زملائك حتى لا يأتي دورك

ويتعلمون منك.

بقيت على هذا الحال قرابة النصف ساعة، من بعدها أخذني العسكري وأعادني إلى وكري.

الأمر بدا لي حرباً نفسية وأن مكوثي هنا قد يطول، لذا قررت بيني وبين نفسي أن أواجه تلك الحرب بأعصاب باردة دون خوف أو تردد بما سأقوله، بدأت باستذكار أسماء من ماتوا في هذه الحرب، جمعت عدداً لا بأس به لكي أذكره لهم في عدة تحقيقات.

استمر الأمر على هذا الحال قرابة الشهر ولأني كنت أذكر لهم أسماء وأماكن كان التعذيب خفيفاً عليّ.

ذات صباح وكالعادة جاءني العسكري وهو يشتعل غضباً واقتادني إلى غرفة التحقيق.

دخلت إلى (المسلخ) مسك المحقق شعري من الناصية ورفع رأسي تجاههُ وقال لي بغضب :(ولا حيوان شو ما تضحك علينا ولا لألعن أبو النفضك ياحيوان)، وصرخ بالعسكري الذي بجانبي أن يأتي بالدولاب.

أدخل أطرافي ورأسي بالدولاب وبدأ بالضغط حتى شلت حركتي تماماً، وبدأ بالضرب على قدماي ويداي لم يترك شبراً في جسدي إلا وأعطاه نصيبه من الضرب، صوت صراخي وتوسلاتي ضج بأرجاء المكان، توقف عن ضربي ليلتقط بعض أنفاسه.

نزعوا الدولاب من جسدي فسقط جسدي المتورم أرضاً.

تابع المحقق كلامه وهو يقلب بعض الأوراق:

-أي يزن وهلئ تحكي براحتك ولا على طريقتنا.

أجبته وبالكاد استطيع النطق:

- سيدي كل شيء أعرفه قد تكلمت به ولا أعرف غير ذلك صدقني.

- بدأ بسؤالي عن أشخاص وأسماء وأماكن أعرف بعضها وبعضها لا أعرفه.

لكني لم أجبه على أحد منها حتى نال منهم الملل فأعادوني لوكري.

وماهي إلا ساعة حتى أتى ذلك اللعين ثانيةً لكن هذه المرة لم تكن للتحقيق، وضعني في زنزانة أكبر من تلك التي كنت فيها.

يوجد فيها عشرة أشخاص تقريباً، أحضر لي بطانية سوداء جديدة ولباساً جديد، أحسست أن شيء ما سيحدث، عمليات التنظيف التي طالت كل أرجاء السجن ورائحة المنظفات التي لم نعتد عليها، والكادر الطبي الذي لم يترك مسامة من جلدي إلا وتأكد من صحتها، لم يكن الأمر مفاجئ لي فقط، بل جميع من حولي طرح الأسئلة حيال هذا التغير المفاجئ.

في اليوم الثاني لم يوقظونا بسطول الماء كعادتهم، بل تركونا بنومنا العميق حتى وصلت أشعة الشمس إلينا، نهضنا ننظر بوجوه بعضنا. مرت ساعة لم يأتي سوى العسكري الذي أحضر لنا وجبة الفطور.

(مربى المشمش - بيض مسلوق - قطعة حلوة لكل منا- وثلاث ربطات من الخبز الساخن) والأغرب من كل هذا شاي ساخن ...

منذ ثلاثة أشهر لم أشم رائحة الشاي، وماهي إلا نصف ساعة تقريباً حتى تبين لنا الأمر.

دخلوا علينا مجموعة من خمسة أشخاص مدنيين، كُتبَ على ظهورهم(UN)

مع ضابط برتبة عميد وحوله عدد من العسكر.

لم يتكلموا معنا أبداً وقفوا أمامنا أقل من دقيقة ثم أتجهوا للزنزانة المجاورة، مضت ساعتان على نفس الحال ثم عاد الأمر كما كان.

لكن لم يعيدوني للوكر القديم، في هذه الأثناء أتيحت لي الفرصة للتكلم قليلاً، كان بجانبي شابين وكانا الأكثر كلاماً بيننا.

حسن ونذير تم اعتقالهما أثناء اشتباك دار بين مجموعتهما وبين قوات من الجيش، وقد تم التحقيق معهما وهم بانتظار المحاكمة(على حد قولهما).

مرَّ شهران آخران لم يحققوا معي، كل يوم كانوا يأخذون واحداً مِنا لمدة ساعة تقريباً يعود وقد بانت على جسده آثار التعذيب.

لم أكلم أحداً بأمور خاصة طيلة الشهر الأول، تباعدت الحواجز بيني وبين حسن وبادر بفتح مواضيع سياسية معي وأخذ رأيي بهذه الثورة فلم أزد على قول ماكنت عليه من الأول.

وذكرت له موقفي وأني ضد القتل مهما كان وأن الاقتتال ليس الطريقة المناسبة لهذه الثورة ولا خاسر فيها إلا الشعب.

حاول جاهداً أخذ معلومات أكثر مني حتى بدأ الشك يراودني على أنه يريد سحب الكلام مني لا أكثر.

اليوم أكمل شهري السادس على اعتقالي منذ لحظة خروجي من المنزل، بدأ الشتاء هجمته باكراً هذا العام وبدأت الأمطار تغزو زنزانتنا ليلاً.

جاء أحد العساكر وأخذني للساحة حيث تجمع قرابة العشرة أشخاص.

بدأ بتفقدنا ثم أجلسونا على ركبنا بانتظار المجهول، دخل الأول وبعد نصف

ساعة تقريباً دخل الثاني وهكذا حتى ذكر العسكري اسمي.

دخلت الغرفة فيها رجل ذو وجهٍ عريض وبجانبه عسكري يكتب ما أقول، فتح الرجل إضبارة رأيت صورتي في مقدمتها، نظر إلي وقال لي لا تخف....

-أنا القاضي واليوم محاكمتك سوف أسالك بعض الأسئلة، أريد جواباً دقيقاً دون خوف.

-أمرك سيدي.

سألني عن اسمي ودراستي وعملي واتجاهاتي السياسية وعن أبي وعائلتي.

أجبته بكل صدق وارتياح لا أدري لماذا، لكن الطمأنينة ملأت قلبي.

كتب عدة كلمات على آخر صفحة بإضبارتي وقال للعسكري : (يلي بعدو)، أعادوني لغرفتي وبقيت كذلك لمدة عشرين يوماً تقريباً، لم يبقَ معي سوى أربعة أشخاص كانوا معي عند القاضي.

في المساء فتح عسكري نافذة صغيرة بباب الزنزانة، نظر إلينا بابتسامة لم نراها منذ شهور وقال غداً ستعرضون على القاضي، وراكم يوم طويل.

لم أستطع النوم وقتها لم يبقَ سؤال إلا وطرحته على نفسي، لكن لم أجد إجابة وقلبي يكاد أن يتوقف من الخوف والقلق.

في الصباح الباكر أتاني عسكري واقتادني لساحة السجن كان معي ثلاثة أشخاص، وضعوا القيود بأيدينا ومشينا بممر قصير ثم خرجنا من باب كبير إلى ساحة أخرى كانت هناك سيارة تنتظرنا، ركبنا فيها وبدأت بالمسير، أصوات الناس والسيارات بدأت بالتصاعد وأزمة السير بدت واضحة، أعتقد أننا في دمشق، رائحة ياسمين الشام تذكرني برائحة منزلي، سبعة شهور لم أرَ

فيها أمي أو أبي.

ياتُرى ما فعلت بهم الحرب والأيام، أم أن مدينتي نعمت بالهدوء وعاد الناس لأشغالهم، هل ما زال أبي في عمله؟

وأمي هل مازالت تستيقظ باكراً وتقضي صباحها مع نسوة الحارة؟

هل ما زال ياسر يعمل مدرساً، أم أن الأيام أجبرته على الرحيل؟

وحاتم يجب أن يكون قد أنهى خدمته العسكرية الآن.

وسارة؛ سارة، هل هي قريبة مني؟ هل شعرت بوجودي بالقرب منها أم أن الزواج والمسؤولية أنسياها يزن؟

توقفت السيارة فجأة ونزلنا منها لمبنى (القصر العدلي بدمشق).

بفرحة تملأ كياني، أحسست أن النهاية قد اقتربت وأن الكابوس الذي أعيش به قد أوشك على الانتهاء.

بعد ساعة تقريباً دخلنا إلى القاضي، لم يسألني عن شيء سوى قال لي تقدم وأبصم على هذه الأوراق، سألته عن ماهية الأوراق وإن كان بإمكاني قراءتها أم لا، غضب كأن البركان انفجر في صدره، وأعاد الأوراق لمصنف وقال للعسكري الذي خلفي أعده إلى مكانه.

مع حلول المساء عدت إلى زنزانتي الصغيرة، بقيت فيها أربعة إيام قبل أن ينتقل مكان نومي للمهجع الثاني.

تلك الليالي أحسست بأن قلبي قد اقتُلعَ من بين ضلوعي، لم يؤلمني تعذيبهم كما آلمني قلبي تلك الفترة، روحي أُنتشلت من صدري والشوق كاد أن يفتك بي.

منذ خروجي من المنزل والشوق لملاقاة وجه أمي يقتلني، لكن تلك الأيام كان الأمر مختلفاً، روحي هي من تتألم، رأسي كاد أن ينفجر من شدة الألم والتفكير.

فتح الباب أحدهم وأخذني لتنظيف الساحة، رأيته يتلفت يميناً ويساراً ثم قال بصوتٍ هادئ: ((لماذا ناقشت القاضي أمس، أنت بريء ولم يثبتوا عليك أي تهم، في المرة القادمة قم بفعل ما يطلبه منك القاضي حتى تخرج)).

سألته من أنت فلم يجبني سوى أنه نظر إلي وقال :

(-بالأمس دخل الثوار مركز المدينة، واستطاعوا السيطرة على جميع أحياء دير الزور، لكن جيش النظام واجههم بقصفٍ عشوائي ولم تهدأ المدافع والطائرات منذ لحظة دخولهم، واستطاع أن يستعيد الحي الغربي والحي المحيط للسجن المركزي وأمن الدولة وما حوله)، ودفعني وأغلق الباب وراءه وذهب....

للحظة لم أعِ عن ماذا تحدث، لم أفهم شيء مما قاله لي.

لكن كل تفكري الآن أين أبي وأمي وما حصل بهم، إن كان هذا الشاب صادقاً بما قال، لكني لم أره بعدها أبداً، لا أعلم ،اختفى.

بعد عشرة أيام تقريباً، جمعونا من جديد واقتادونا لنفس المكان، ما إن وصلنا حتى جهزت إبهام يدي لأبصم على ما يريد.

كانت أوراق مكتوبة بخط يد عبارة عن ثلاث أوراق بصمت على آخر ورقة منهم وأخريات مطبوعة لا أعرف محتوى أي منهن.

لم أحاول فهم ما حصل عملت بوصية ذاك العسكري الذي بدا لي أن القدر

أرسله لي وأخذه فجأة.

انتظرنا حتى الساعة الثانية والنصف تقريباً، سلمنا العسكري الذي كان معنا لعناصر الأمن الداخلي وبعدها ركبنا بسيارة شحن كبيرة واقتادونا لجهة أخرى.

في الطريق كان الشرطي الذي معنا ألطف من العسكري بكثير، فقد تبادل معنا أطراف الحديث وسألنا عن تهمنا وعن مدة سجننا.

حين وصل السؤال إلي، لم أعرف ماذا أجيب.

فضحك وقال لي: كيف لا تعرف تهمتك وحكمك؟

أخذ ورقة من جيبه وسألني عن اسمي، فبدأ بقراءة ما كتب بجانبه، قال لي وقتها: حكمك سنة مع النفاذ والتهمة هي التظاهر والتحريض على التظاهر وتخريب الأملاك العامة)، ثم أردف قائلاً :

منذ متى وأنت معتقل؟ أجبته منذ سبعة شهور تقريباً فقال لي وقتها أنه لم يبق لي سوى شهرين أو ثلاثة على أكثر حد، وأني سأقضيهم في سجن عدرا المركزي.

لم أعرف وقتها أأفرح أم أحزن.

بعد وصولنا لسجن عدرا، أنزلونا من السيارة وأخذونا لغرفة (المستودع) حيث وزعوا علينا اللباس الموحد للسجناء، وبطانيات عسكرية وأخذونا لزنزانة كبيرة فيها أسرّة حديدية فوق بعضها يوجد فيها أربعين شخصاً تقريباً.

دخلت وجلست على سريري بعد تنظيفه ومد البطانيات عليه كما علمنا الشرطي.

كان بجانبي رجل كبير تجاوز عمره خمسين عاماً، رحب بي وقال لي بعد أن

علم أني قادم من سجن صيدنايا (اطمئن هنا الأمور على ما يرام) وسألني عن مدة حكمي فقلت له سنة قد مضت منها سبعة شهور في صيدنايا... ضحك وقال ساخراً (أقضيها على قدم واحدة).

العم رضوان حكم بالسجن بعد أن قتل زميله في العمل بالخطأ.

قضى منها عشر سنوات في هذا المكان، وبقي له عام ونصف تقريباً وحين سألته عن مدة حكمه أجاب بخمسة عشر عاماً..!

لم أفهم كيف ذلك حتى شرح لي أن السنة القضائية تسعة أشهر لمن يقضيها بحسن سيرة وخلق، دون أي مشاكل، وهنا فهمت لماذا بقي لي شهرين فقط.

أتممت يومي الأول في حفظ وجوه من معي وسماع أحاديثهم وضحكاتهم.

كان التفاؤل يملأ صدري والرضا والقبول بما كتبه الله عليّ يجعلانني أقوى بكثير، نمت ليلتها بعمق شديد لم أنم هكذا منذ سبعة شهور.

ولاحقاً علمت أن يوم الثلاثاء كان للنظافة العامة والاستحمام في حمامات كبيرة ومجهزة بماء ساخن.

الإفطار يتم في صالة كبيرة وقوفاً أمام طاولة لثمانية أشخاص، ثم نعود بعدها لزنزانتنا التي علمت بعدها أنها (المهجع الثالث).

كان الوضع أفضل بكثير، الحياة هنا جنة بالنسبة لسجن صيدنايا، لم يكن هناك تحقيقات ولا تعذيب إلا لمن يقوم بعملية تخريب أو مشاجرة، وكانت (المنفردة) إحدى طرق التهذيب للسجناء.

العم رضوان ساعدني كثيراً، و وقف بجانبي بالكثير من الأمور التي واجهتني، طلبت منه أن يساعدني بتأمين أتصال مع أبي فمنذ سبعة شهور لا يعلمون

عني شيئاً.

أمّن لي هاتفاً من أحد عناصر الشرطة مقابل مئة ليرة للدقيقة الواحدة، قلت له وقتها أنني لا أملك أي نقود، فضحك وأعطاني الهاتف، حاولت الاتصال كثيراً بوالدي ولكن لم أتوفق بذلك، حاولت الاتصال بالمنزل لكن كذلك الأمر لم أتوفق، حتى علم الشرطي أني أحاول الاتصال بمدينة (دير الزور)

وقتها قال لي جملة لن أنساها ما حييت:

-((ع ديرالزور عم تتصل؟ ليش بقي ديرالزور ولا ظل حجر ع حجر بدير الزور والله بتتصل بالأموات أسهلك)).

علمت حينها أن مدينتي أصبحت مهجورة، وأن الموت عاث بها، وأن صواريخ وقنابل جيش بلدي التي سقطت على أرضها كافية لتحرير القدس والجولان، وأن الأمر لم يعد كما كان، فقد دخل الثوار مدينتي وسيطروا على كافة أجزائها ولم يبق للنظام سوى قسمها الغربي فقط، وقام بقصف جميع المناطق الأخرى ونزح أغلب ساكني المدينة إلا الثوار منهم.

تلك الأخبار يتناقلها السجناء أثناء الزيارات، أما القناة الوحيدة الموجودة في تلفاز المهجع، فتلك تجعل جنان الله سورية، المؤامرة قد انتهت والإرهابيون والمتآمرون قد اندحروا بفضل جيشنا الباسل، المضحك إننا كنا مجبرين على التحدث فقط بما يمليه علينا المذيع المتفائل.

مضى شهرٌ لم تمضي به دقيقة دون التفكير بمصيري وبأبي وأمي.

حاولت عشرات المرات الاتصال بهم لكن دون جدوى.

كان للعم رضوان الفضل الأكبر في مواساتي والوقوف بجانبي حتى آخر يومٍ

من مدة سجني.

في إحدى الأيام حضر زهير ابن العم رضوان لزيارته، فأوصاه بالحضور في يوم خروجي وبتأمين جميع ما يلزمني حتى صعودي الحافلة التي ستقودني لمدينتي، وجاء اليوم الموعود.

الخامس والعشرون من شباط لعام 2013

دخل الشرطي وذكر ثلاثة اسماء من بينهم اسمي وقال (يلي طلع اسموا جهزوا حالكم ...أفراج).

لم أشعر بفرحة كهذه بحياتي سوى عندما التقيت سارة لأول مرة في كلية الحقوق، بدأ الجميع بتهنئتي وتوديعي.

ارتديتُ ما أحضره لي زهير في إحدى الزيارات، مع الحذاء الرياضي الجديد، وانتظرت للواحدة ظهراً، وما إن أتى موعد الإفراج حتى جف الدم في عروقي مضت تلك الساعات كأنها سنين.

توجهنا لغرفة رئيس السجن، أعطوني هويتي (لا أدري كيف حصلوا عليها)، وورقة إخلاء سبيل، وختموا على كفي الأيمن وتوجهت بعدها للباب الرئيسي، لأرى الشمس من جديد ولأتنفس هواءً نظيفاً دون رائحة رطوبة.

كان زهير بانتظاري عند البوابة الرئيسة للسجن، ذهبنا لمنزلهم تناولنا وجبة الغداء وهممت للسفر لمدينتي.

لم يكن لدي الصبر الكافي للبقاء دقيقة أخرى، أوصلني زهير للكراج وقطع لي تذكرة سفر وأعطاني بعض النقود ورحل حين لوح لي بيده وأنا أجلس في مقعدي لأرى سماء دمشق لآخر مرة ...(ولا أعلم إن كانت الأخيرة).

****

الموت حياً

بعد أن ركبتُ الحافلة متجهاً من دمشق لمدينتي، أحسست أن الروح بدأت تعود لجسدي ببطء شديد، لتختفي فجأة وتضطرب دقات قلبي في كل مرة نقف على حاجز للتفتيش.

في السابق كانت المسافة بين دمشق ومدينتي تستهلك في أقصى مدة ممكنة ست ساعات، أما هذه المرة فقد استغرقت رحلتنا عشرين ساعة، هل وصل البغض والتنافر في وطني لهذا الحد؟

لحسن حظي أني وصلت محافظتي في ذروة النهار، ولسوء حظي أني وصلت محافظتي لأرى فقط بقايا شوارع، تحتل الحجارة أجمل معالمها وبقايا الحديد المتناثر من صواريخ جيش بلادي.

أتساءل عن الذنب الذي ارتكبه هذا البلد ليموت مثل هذه الميتة، شعبٌ يقتل جيشه وجيش يفتك بما بقي من شعبه.

دخلت شوارع الحي الغربي وقد بدا كأنه ثكنة عسكرية أو سجن كبير، أنظر في وجوه الناس، ثكالى قد شقت الدموع بقايا أمانيهم وذكرياتهم، يومها شعرت أن كل شيء تغير حتى الهواء لم يعد ذاته.

اتجهت فور وصولي لموقف التاكسي المقابل للكراج، أخبرت السائق أن وجهتي هي حي النهر.

نظر إلي وقد كان في الثلاثين من عمره وقال:

أي نهر وأي حي أنزل من السيارة.

لم يكن وحده، بل سائق السيارة الثانية أنزلني بنفس الطريقة.

اتجهت لمقهى صغير وسألت النادل هناك عن ما حصل لعله يُرشدني لشيء.

رد علي بسؤالٍ وكأنه يحقق معي.

من أين أتيت وإلى أي منطقة ستذهب؟

قلت له أتيت من دمشق وأنا من سكان حي النهر وأريد الذهاب إليه وأردفت أني حاولت الاتصال جاهداً لكن دون فائدة، نظر إلي باستغراب وقال انتظر قليلاً.

ثم عاد وبصحبته رجل في الخمسين من العمر ضخم الجثة.

عاود الأسئلة ذاتها، فقلت له يا عم:

أنا قادم من دمشق ولا أعرف شيء عن المحافظة منذ عام، وأريد الذهاب لبيت أهلي، أردت الاتصال بهم لكن أحدهم أخبرني أن الهواتف كلها مفصولة عن الخدمة.

لكنه لم يساعدني بشيء، لم ينطق إلا بجملة واحدة، قال لي يومها:

إن كان عندك أقرباء أو أصدقاء في الحي فاذهب إليهم، أما حي النهر فمن المستحيل أن تصل إليه مهما حاولت.

قررت الخروج من المقهى، لم أكن مطمئناً لنظرات ذلك العجوز، حتى أني لم أقتنع بما قال، لكني حين مررت بشوارع الحي الغربي وجلستُ في مقهى آخر وسمعت أحاديث الناس هنا وهناك أيقنت أني قد خرجتُ من سجنٍ صغير إلى آخر كبير، وأن القدر لم يمنحني فرصة هذه المرة، يبدو أن الحظ ملّ هذه البلاد

ورحل هو الآخر.

علمت وقتها أن الخروج من الحي الغربي لأي حيٍّ من محافظتي شيء مستحيل ومخاطرة قاتلة.

اتجهت في إحدى الشوارع الفرعية لا أعرف وجهتي، ولا أدري إلي أين أتجه، صادفت رجلاً مسناً يجلس أمام باب منزله، وقفت أمامه، ألقيت التحية عليه، رفع رأسه تجاهي وقال من أنت؟

قلت له وقتها أني غريب وأريد الذهاب إلى حي النهر.

أشار إلي بيده أن اجلس وقال: أنت لست غريباً، قل لي ما أمرك وسأساعدك إن شالله، جلست معه وذكرت له ما حصل معي وأن عائلتي هناك ولا أعرف عنهم شيء.

قال لي وقتها إن الأمر مستحيل، سكان حي النهر إما إنهم أموات أو قد هاجروا الحي، ثم أرشدني إلى مطعم وأعطاني إشارة أقولها لصاحب المطعم وهو سيساعدني.

لم أكن يومها أملك شيئا إلا هويتي وورقة إخلاء سبيل وبعض النقود التي أعطاني إياه زهير، توجهت للمطعم المذكور والتقيت بصاحبه، وأخبرته بالإشارة التي قالها لي ذلك المسن وشرحت لهُ ما أريد.

قال إنه سيساعدني للوصول إلى آخر نقطة من الحيّ الغربي ومن ثم أتابع بمفردي فلا مخاطر بعدها.

وما إن حل المساء حتى ذهبت برفقته لرجل يدعى (أبو مؤمن)، قام بدوره بسؤالي عن كل شيء حتى أطمأن.

ثم ذهبنا، وما إن مشينا عشرة أمتار حتى توقف وطرق باب أحد المنازل، وسلمني لرجلٍ يدعى (ابو مازن)، وهو بدوره طرح عليّ بعض الأسئلة.
لم أستغرب أسئلتهم بعدما شرح لي صاحب المطعم ما حصل في فترة غيابي عن المحافظة، الجميل في الأمر أن أبو مازن كان يعرف أبي فاختصر عليَّ الكثير من الأسئلة، أدخلني إلى المطبخ، لم أحاول سؤاله عن شيء، صعدت خلفه بواسطة سلمٍ خشبي إلى النافذة التي تطل على فسحة صغيرة بين البنائين إلى البناء المجاور وصعدنا ثانية سُلماً آخر قد وضِعَ مسبقاً ودخلنا من النافذة للبناء المجاور.
المكان كان ضيقاً جداً ومليء بالأوساخ، فسر لي أبو مازن تلك الأوساخ بأنهم هم من وضعوها لإخفاء هذا الممر الأسطوري بين حيّين ملتصقين عبر عشرات السنين قد أصبحا فجأة دولتين متحاربتين.
دخلنا لشبه منزل لكنه كان أفضل حالاً من غيره، تركني عندهُ أبو مازن وعاد لمنزله وأوصاني بالحذر التام وإتباع الكلام المكتوب على جدران المنازل والتقيد به.
خرجتُ من البناء لكن الظلام كان يحجب رؤية الكلام المكتوب، تقدمت بحذر بين الأحجار وبين الأبنية المهدمة.
حتى رأيت سور حديقة كان يطلق عليه سابقاً بحديقة الرئيس، قد ذكرها لي أبو مازن بأن أتوجه إليها لمعرفة بقية طريقي لكنه ذكر لي أن اسمها أصبح حديقة الشهداء.
قضيت أجمل ساعات عمري في هذا المكان برفقة سارة ،امتلأت عيوني بالدمع

ونال مني التعب والظلام، تذكرت سارة، سمعت ضحكتها تملأ أرجاء المكان، وتُكشفُ بنور ذكرياتنا ظلام السنين .

تقدمت قليلاً وجلست مسنداً ظهري لشجرة كبيرة.

الأزهار تملأ المكان تتمايل بلطف حاضنة بداخلها فراشة قد أتعبها اللعب مع ورقات الزهر، خيوط الشمس تخترق أغصان الشجر المتشابكة لتمدنا ببعض دفئها الربيعي، سارة تجلس بجانبي تتطاير خصلات شعرها الذهبي فوق دروب وجهي الحنطي، تلمس أطراف أصابعي خدّيها فيتطاير منه أريجٌ يمد الأزهار من حولنا.

صوت بعض رشقات الرصاص أعادني إلى واقعي المظلم وإلى الحديقة التي قد حُرق نصفها وهجرت الأزهار والفراشات أرضها.

احتلت القبور أرض الحديقة، وتحولت لمقبرة لا يكاد يخلوا متراً من أرضها إلا وضع عليه شاهداً برقم أو اسم لصاحب هذا القبر.

تابعت مسيري خارجاً من تلك الحديقة وقد ارتوت بعض حبات رملها ببعض دموعي والكثير من دماء من سبقوني إليها.

هذا هو الطريق الرئيسي للمدينة، في آخره بناء كلية الحقوق، كان طريق للعاشقين، لكن ومع بداية الثورة في محافظتي تحول لشارع التظاهر، لم تخلوا قطعة منه إلا وقد هتف عليها (حرية).

يجب علي قطع الشارع بسرعة فائقة لأن هذا الشارع هو أخطر ممر في الأحياء المحررة لكونه عريض وقد تأتيك طلقة قناص من أي جهة، تلك كانت أهم وصايا أبو مازن.

أخفضت رأسي وأطلقت قدماي متجاوزاً آلاف الهتافات التي مرت في هذا الشارع، حتى وصلت للجهة المقابلة، لم يتبق أمامي الكثير لأصل بداية حي النهر، هنا لا يهمني الظلام فتلك الشوارع قد اعتادتها أقدامي، وحفظت شكلها ذاكرتي، أُقادُ إلهيا دون تركيز.

منزل ياسر يبعد عني عشرات الأمتار، لكن لا شيء يشجع لزيارته في هذا المساء.

الحي بأكمله خاوٍ من أي نوع من أنواع الحياة، لم يترك الطيران الحربي حجراً على حجر في هذا الحي.

مررّت ببقايا منزل ياسر وقد سجد سقفهُ شاكياً لربه قهر السنين.

في تلك اللحظات اعتصر قلبي لما رأيته، تفكيري كان بياسر وماحل به وبأهله، وحنين وعائلتها بعد أن سقط السقف الذي كان يحميهم من حر الصيف وبرد الشتاء.

الممر ضيق بين الأحجار المترامية في شوارع الحيّ، والظلام والخوف والقلق ورصاص القناص الذي أسمعه في كل حين لم يترك فيّ أي قوة، لكن شوقي لأمي وأبي وهدف وصولي لبيتي وذكرياتي، كان أقوى من الظلام وأقوى من القناص ومن الحجارة التي أتعثر بها في كل متر من مسيري.

في ذلك المساء رأيت كل أنواع الظلم في كل حجر أو بقايا القنابل أو رائحة الموت التي ملأت جميع ما حولي.

وقفت واختبأت بعد أن رأيت ناراً قد أوقدت في إحدى الأزقة، لم تكن تبعد عني سوى أمتار، أحسست أن قلبي نُزع من صدري فجأة، شيءٌ لامس ظهري،

استدرت ببطء شديد، شابٌ يحمل بندقية ويأمرني بالجلوس وأن ألتزم الصمت، لم أكن لأخفي فرحتي حين رأيت بشراً في تلك الأحياء المدمرة، أرجع أمان بندقيته وجهزها للإطلاق .

وبصوت شبه منخفض صرخ :(يا ابا المنتصر تعال).

قيدني بسلكٍ كهربائي، واقتادني لغرفة فيها شابين آخرين، وبدأ التحقيق معي. كانت أسئلتهم أصعب من أسئلة ذلك الضابط الذي حقق معي حال وصولي لسجن صيدنايا، لكن طريقتهم كانت ألبق قليلاً وكانت تفتقر لأيٍ من الشتائم. ذكرت لهم قصتي بالكامل، من أين أتيت ولأي مكان سأذهب، شاهدوا بطاقتي الشخصية، وورقة إخلاء السبيل، عم الصمت قليلاً، حتى قام أحدهم وقال أنا ذاهب لإخبار (أبو قتيبة) للنظر في أمره.

طلبت من أحدهم الماء فأحضره لي بكل احترام وعرض عليّ الطعام مما أعاد السكينة لقلبي التي هجرته منذ أحد عشر شهراً حينما أخذوني مكبلاً من منزلي.

مضت ساعة تقريباً لم يكلمني فيها أحد، فقط استمعوا لحديثي عن سجن صيدنايا وسؤالهم عن بعض أسماء الذين كانوا قد اعتقلوا من بعدي، حاولت سؤالهم عن الأوضاع وما آلت إليه الأحوال لكن لم أسمع منهم جواباً.

وقف الجميع عند دخول أبو قتيبة، نظر إلي وأمعن النظر ثم سرح بخياله قليلاً، لم يكن هذا الوجه غريباً عني لكن لحيته الطويلة والظلام والإرهاق الذي نال مني، والغباشة التي سكنت عيني أبعدوا وجههُ عن ذاكرتي ، عاود النظر إلي ثم أبتسم وقال:

- كيف وصلت إلى هنا ومن ساعدك؟

صوته دخل قلبي قبل أذاني، الصوت أعرفه جيداً لكن الخوف كان يعتليني ويسحق ما تبقى من ذاكرتي.

زفرت الهواء فقد مللت من إعادة قصتي كل حين، ذكرت له ما حصل معي منذ وصولي المحافظة، فسألني عن اسمي بالكامل وسبب دخولي السجن ،أجبته وقد نال مني الملل والتعب.

قلت لهم وقتها أني فقط أريد الذهاب لمنزلي لست غريباً أو دخيلاً.

ابتسم في وجهي أبو قتيبة هذا وقال: - أقتلوه.

رائحة الموت لم تفارق أنفاسي منذ أن دخلت الحيّ، لم أتوقع أن يأتي دوري بهذه السرعة.

لكن، مع نظرات الاستغراب التي ملأت وجوه من حولهِ، وبعد أن تعالت ضحكات أبو قتيبة، اجتاح الاستغراب ملامح وجهي، تقدم أبو قتيبة خطوات تجاهي وفتح يداه يريد معانقتي.

قاطعهُ صديقه وسأله :

-أبو قتيبة لم أشاهدك تضحك منذ زمن؟

رد عليه وهو يعانقني:

هذا يزن اخي الذي بقي لي في هذه الدنيا.

حاتم..!!!

لم أعرفه لأول وهلة، كان ملتحياً طويل الشعر كأنه عاد من القرون الوسطى، عانقته كأني التقط روحاً تفلت مني، عانقتهُ كطفلٍ أُعيدَ إلى أمه بعد ضياعه،

دموعي كانت تحكي قصة شوقٍ لهُ، كيف لا وهو من علمني أسس العيش في هذه الدنيا، من جعل مني كتلة من قوة بعد أن كنت متردداً حتى في أتفه قراراتي، حاتم الذي قضيت معه أجمل أيام سنيني ها أنا ألتقيه في أصعب أيام حياتي، هو دائماً هكذا، أجده حين أحتاجه.

لكن شوقي لسماع صوت أبي ومسح الدمعة عن خدّ أمي لم يسمح لي بالاحتفاء به أكثر، طلبت منه على الفور أن يصحبني لمنزلي فظلام الليل وتغيير معالم المدينة وخوفي من المجهول وما قد يصادفني كانا أقوى من أن أكمل بفردي.

سكت لثواني، ثم طلب مني الجلوس لأستريح قليلاً، أعدت طلبي ثانيةً، لكنه أصرّ على رفضه وطلب تأجيل الذهاب للصباح بسبب الظلام ومخاطر الطريق ليلاً.

لم يكن لدي خيار ثانٍ، جلست معهُ طويلاً تحدثنا طويلاً، وتضاربت آرائنا حيال هذه الحرب، رأيي لم يعجب أحداً ممن كانوا معنا، فسألني عن ذنب الشباب الذين قضوا في هذه الثورة، عن ذنب أخوته الذين

قضوا تحت سقف بيتهم مع والدته... ما ذنبهم...؟

هذا السؤال الذي أسكتني به حاتم ولم أعلم له إجابه حتى الآن.

أخبرني أيضاً أن ياسر وحنين قد هاجروا إلى تركيا وبأن عائلتهم هاجروا إلى دمشق، وكلما سألته عن عائلتي غير الكلام واتجه بكلامه للأوضاع وأحوال الناس في هذه الحرب.

قاطعَ النعاس حديثنا، لا أعلم متى غفت عيني تلك الليلة، بعد أن نام الجميع من حولي، وبقيت لي ذكريات أتقلب بها يميناً ويساراً، حتى غلبني النعاس.

وأخيراً ها هو قرص الشمس يعتلي منصة السماء معلناً إطلالة يومٍ جديد قد انتظرته طويلاً، نهضت من فراشي، لم يكن أحد معي بالغرفة، اتجهت خارج الغرفة باحثاً عن حاتم.

بالمناسبة؛ هيا كانت بقايا بناء قد تهدم نصفه الأيمن، ولاحظت في الفترة التي بقيت بها هناك أن أغلب الكتائب المسلحة يسكنون في أنصاف الأبنية، ويبتعدون عن الأبنية السليمة لأن الطيران الحربي كان يتقصد ضربها.

في الشارع كان هناك شاب لم يتجاوز الثامنة عشر، كان قليل الكلام شارد الذهن يحمل سلاحه ويقف يراقب السماء، ويساعد من يأتي ليأخذ بقايا أشلاء منزله، أو يساعد في إسعاف من يتضررون من جراء القصف.

كشف لي ضوء النهار حقيقة ما حدث، وما يحدث، يد الدمار قد طالت كل شيء، في كل ساعة هناك عائلات تُشرد أو أشلاءً تتناثر، الهمجية كانت عنوان القصف الجوي على مدينتي، والإبادة كانت هدفها، لكن من يدفع الثمن؟، من له الحق، ومن عليه الحق؟

القاتل يصرخ (الله أكبر).

المقتول يصرخ (الله أكبر).

حتى باتت هذه العبارة الأكثر دموية، بعد أن كانت ومازالت الأطهر بين جميع العبارات لأنها لا تمت للطرفين بصلة.

نفضت يداي من غبار التعب وتنهدت وتوكلت على الله قاصداً الحيّ الذي لم

يفارقني لحظة، لكن يد ذلك الشاب أوقفتني وقال لي:

- أبو قتيبة قال انتظرهُ حتى يعود.

نظرت إليه....

كانت براءة الأطفال ترتسم على وجهه وملامح الرجولة والشقاء والتعب قد أكلت من ناصيته.

سألته عن اسمه فلم يجب وطلب مني الجلوس فقط حتى يعود حاتم.

بدأت أتلفت يميناً ويساراً بين بقايا المنازل، لتأخذني الذاكرة لسنة مضت عندما كانت هذه الشوارع تعجّ بالأطفال تعجّ بالضحكات والصراخ، لم يخلُ جدار إلا وكتب عليه عبارة ما..

انتبه قناص...

حرية للأبد....

منطقة كتيبة فلان أو أبو فلان...

يسقط النظام.... لكن أكثر ما شدّني عبارة كُتِبَ عليها خلاصة هذه السنين.

((وطن نصك قاتل ونصك قتيل، وأول أنت بالجهاد وبالفساد)).

انتظرت حاتم حتى أتى، لم يغب طويلاً ،لكنه أجّلَ ذهابنا لبعد الإفطار، حاولت الذهاب بمفردي، لم يعد لدي الصبر للانتظار، لكنه لم يسمح لي وأصرّ أن نذهب سويتاً، كان يُشغل نفسه بأمورٍ تجعلني أشتعل غضباً، وفي كل مرةٍ كان يخلق لنفسهِ حجةً جديدة لتأخير ذهابنا، حتى تركته وذهبت بمفردي بعد أن طلب التأجيل لبعد صلاة العصر، فلحق بي وانطلقنا سويا.

كنا نمشي بطرقٍ بعيدة لكنه أصرّ عليها لسلامتها ولبعدها عن القناصين على حد قوله.

أثناء مسيرنا كررت عليه عشرات المرات سؤالي عن أهلي لكنه كان يجيب بأجوبة مبهمة وغير مفهومة وأحياناً يكتفي بقول لا أدري، حتى وصلنا الشارع العام الذي يفصل بين حي النهر وبين الحي الذي كنت فيه.

الأبراج التي كانت في بداية حيّنا ما تزال شاهقةً رغم تعرضها لبعض الأضرار، مما أعطى لقلبي الأمل بأن يكون حيّنا الأقل تضرراً.

كان علينا الركض لقطع الطريق لأن ثمة قناص فوق سطح إحدى الأبراج وكان الأخطر كما قال لي حاتم، كنت قد سبقت حاتم واختبأت وراء أحد الجدران منتظراً إتمام المسير.

لكن ما إن دخلت قليلاً ولم يعد يفصلني عن شارع بيتنا سوى القليل، حتى خرّت قواي وانهارت أعصابي لِما رأيت.

بقايا المنازل والحجارة المترامية قد ملأت الطرق، بعد أن كان الياسمين الدمشقي والريحان يملآن أرجاءها.

لم يعد للمنازل رائحة العبق التي تربيت عليها، فقد طغت رائحة الموت أركانها، توقفت في مكاني.

أين البيوت التي كانت هنا، أين الأطفال وهم يملؤون الشارع بكُراتهم الجلدية، أين أشجار الكينا التي اشتدّ عودي وأنا ألعب حولها، لم أعرف المنطقة ولا الأزقة المجاورة ولا المنازل بعد أن هجرها أصحابها وسقطت معظم أجزائها.

أشار حاتم لأحد المنازل، كأنه يريد أن يثبت لي نظريته التي تناقشنا بها أمس.

ارتسمت على وجهي ابتسامة الهزيمة بعد أن رأيت بعض بقايا منزل عائلة سارة وطيفها الذي ناداني من فوقه.

تنقلت بخطواتٍ قصيرة ألمس جدار بيتهم وأشم رائحتها بين حجارته.

بدأ الدمع يتساقط فوق ثراه معلناً انكساري وانهزامي وفقدان أملي.

استدرت إلى حاتم واستحلفته بالله أن يخبرني عن أهلي قبل وصول بيتي.

نظر إلي وقال بصوت يرتعش وبدمعة تكاد تسقط.

- الحرب لم تبقِ لأحد فرصة النجاة دون أضرار، حتى وإن كانت خسارته بهجرةٍ عن بلاده، أنت قوي ومؤمن بالله، وتعلم أن ابتلاء الله للعبد محبة، الحرب أخذت أمك، نحتسبها عند الله من الشهداء، اصبر وادعُ لها بالرحمة والمغفرة.

تأملت وجه حاتم للحظة، لم أعِ ما قال لي، ولم أجرؤ على طلب إعادته، الشمس التي كانت تنير حياتي فجأة رحلت وحل الظلام في أرجاء دنياي، الشيء الوحيد الذي كان يدعوني للعودة رحل قبل أن أصل إليه.

تقدمتُ بخطواتٍ قصيرة والظلام يحيطني من كل جانب، توقفت مرةً، وركضت مرةً، مشيتُ عشرات الأمتار دون أي حواس، كان حاتم يكلمني لكني لم أكن أسمع، كنت أسمع فقط صوت أمي، وأشم فقط رائحة الريحان المزروع أمام منزلي.

وصلت للبيت الذي غبت عنه احد عشر شهراً، لأعود وأراه كومة من حجر وسقف هاوٍ، أين الريحان الذي يزين بابهِ، حتى رائحته رحلت مع رحيل أمي، دخلت المنزل، لم تستقبلني أمي هذه المرة بلهفتها الدائمة.

غرفتي كانت قد تهدمت بالكامل، لكن بقية المنزل لم يكن قد تضرر سوى بعض الشقوق في الجدران.

أتاني صوت حاتم من خلفي وقال:

- منذ أربعة شهور تقريباً، استطعنا السيطرة على الأطراف القريبة للمدينة، وكنا قد نشرنا خبراً بين الناس عن نيتنا دخول المدينة، فرحل أغلب الناس حين بدأنا بالتوغل، مما نتج عنه قصف جوي شديد لأحياء المدينة كافة، لم أكن أعلم وقتها أن والديك بقيا في المنزل، كنا نسعف المصابين وندفن الشهداء، كنت ومجموعتي هنا حين نزل بالجوار صاروخ(سكود) تسبب فيما تراه عينك، تفاجأت يومها بوالدك يطلب المساعدة لإخراج أمك من تحت الركام، كان يصرخ بنا كأننا من قتلها، ويشتم الثوار والكتائب ويلعن هذه الحرب التي تسببنا بها على حد قوله.

قال والدك يومها إنها كانت تقضي الليل والنهار بغرفتك تنتظر عودتك، حتى كتب الله لها أن تستشهد على سريرك، وقد أغرقت وسادتك بدموع الانتظار، قاطعته بسؤالي عن أبي.

رد علي بارتباك : لا أعلم، لم يشاهده أحد بعد أيامٍ من ذلك اليوم.

لم يكن في المنزل أي أثاث فقد سرق كبقية المنازل، ولأن السارق لا يقرأ، كانت الكتب والدفاتر تملأ المكان، تجولت بأرجائه أكثر من ساعة أبكي كل شيء من حولي، صوت الناي الصدئ عاد لينخر رأسي من جديد، وعادت أوتار القيثارة تخنق أنفاسي.

خزانتي أخرجت ما في جعبتها من ذكريات وخرّت قِواها هي الأخرى معلنةً موت كل شيء جميل.

بدأت الشمس بالانكسار وعلينا العودة قبل حلول الظلام، حاولت البقاء بالمنزل لكن حاتم لم يقبل.

قبل خروجي وجدت دفتر مذكراتي ليبقى لي ذكرى من ماضٍ عشت لحظاته بضحكة ودمعة وقوافي لم تكتمل بعد.

عدت مع حاتم لمقره وجلسنا حتى غلبني النعاس.

سألت الكثيرين عن والدي لم يكن أحد يعرف أين ذهب وماحل به، لكن نظرات حاتم كانت تحمل إجابات لكل أسئلتي.

جاءني حاتم في صباح اليوم التالي وأنا جالسٌ عند قبر أمي، أشكي لها ظلم الحياة وما آلت إليه حالتنا، هي الأخرى لم تجب عندما سألتها عن أبي، أعطاني بعض الأوراق والوثائق والشهادات الخاصة بي وبعائلتي كان قد وجدها في المنزل بعد غياب والدي.

وبعد أيام وبمساعدة حاتم استطعت الخروج من محافظتي والذهاب لتركيا بعد أن تواصلت مع ياسر واتفقت معه على نقطة اللقاء.

البداية كانت صعبة جداً، العالم ليس عالمي وعليّ التأقلم وتعلم لغة جديدة.

سكنت في بيت يسكنه خمسة شباب، كانوا يخرجون من الثامنة صباحاً لا يعودن حتى مغيب الشمس.

ياسر وحنين كانا يسكنان ببيت صغير، يعمل ياسر في منظمة إغاثية بمردودٍ

لا يكاد يكفي لأساسيات المعيشة.

عملت مع ياسر بنفس المنظمة حتى تأقلمت قليلاً وتعلمت بعض الكلمات الأساسية، من ثم عملت مع شاب تركي من أصول عربية في محل للدعاية والإعلان، حتى تم افتتاح مدرسة صغيرة عائدة لمنظمة الأمم المتحدة وتم قبولي، وقد تقدم ياسر وحنين وتم قبولهما أيضاً.

****

غربة جسد

اليوم الثاني من كانون الأول لعام 2013.

ذكرى استشهاد أمي، ذكرى وفاة قلبي، يومٌ تقف الأرض له دقيقة صمت، تقف له جداول المياه، يبكي الريحان في هذا اليوم والياسمين يُعلن إضرابه عن بث عبقه.

رحيل أمي فَطَرَ قلبي، لكن الله حين يبتلي عبداً يضع في قلبه أضعاف قوته، أما أني فقدت أبي فذلك المصاب الأعظم، لو قيل لي أنه مات، لكن ذلك أهون علي.

صعب أن تجد نفسك فجأة بلا أب ولا أم بلا وطن، ما الفائدة من بقائي على قيد الحياة بعد أن فقدتُ قلبي وهجرتني روحي.

لم أتخيل يوماً أن تصبح رؤية وطني حلماً، لكن عندما تكون غريباً في وطنك تصبح هجرتك عن وطنك ملجأً تلوذ به من غربتك.

الأيام هنا بطيئة للغاية، هل يعقل أن يتآمر علينا كل شيء حتى الوقت وتحركاته؟.

أذكر في طفولتي، جلستُ مرة مع أبي ليُعلمني كيف أنطق الأحرف الإنكليزية، قال لي حينها : يابني عندما تتعلم لغة قوم تأمن شرهم.

ليته علمني كيف أنطق اللغة العربية.

لم يخسر أبي أي حرب خاضها.

الأولى عندما كان في ربيعه التاسع عشر أثناء حرب أكتوبر، والثانية دامت تقريباً عشرة أعوام حين فاز بأمي وتزوجها بعد أن وقف الجميع في وجهه،

والثالثة حين حملني بين ذراعيه صغيراً وحافظ عليّ حتى أكبر، لكني لم أرث منه انتصاراته وخسرت كل معاركي، وها أنا أدفع ثمن هزائمي في حروبٍ لم أخضها.

عندما رأيت ياسر حال وصولي لمدينة أورفا التركية، كان البياض قد أكمل على ما تبقى من سواد شعره.
أيقنت حينها أن من بقى في وطني وشاهد ما حصل غفر الله له ما تقدم وما تأخر من ذنبه، وأيقنت أيضاً أني أثناء مكوثي في السجن كنت مرفهاً كابن طاغية من طغاة عصرنا.

أما حنين فقد عاثت الحرب ببريق عينيها ولم تبقي فيهما سوى دمعة لم تنزل بعد، لكن الله منّ عليهما ورزقهما (مجد)، لعله يعيد لهم ما فقداه من ابتسامة في هذه السنوات اللعينة.

تأقلمنا مع واقعنا الجديد قليلاً، مما أعطاني الفرصة لبدء حياة جديدة، لعلي أجد ما أعيش لأجله.

في المنظمة التي عملت بها سابقاً، كان هنالك ما يسمى بالمكتب الإعلامي، الذي يُعنى بتوثيق أسماء الشهداء وعوائلهم والتكفل بالجرحى القادمين من سوريا إلى ولاية أورفا التركية، بالإضافة لعمله الأول بتوثيق الأخبار ونشرِها.

حاولت السؤال عن اسم والدي في تلك القائمة لكني لم أخرج بنتيجة، لم يكن له أي بيانات، مما أعطاني أملاً و دافعاً أقوى للبحث أكثر.

طلبت من ياسر التواصل مع ابن خالتهِ المتواجد في ديرالزور وهو أحد القيادين في إحدى الكتائب، وسؤاله عن والدي لعله يأتيني بجوابٍ يريحُ جوارحي.

لم يكن ياسر يريد التواصل معه لِما سمع عنه من أمورٍ تسيئ لسمعتهِ من أعمالٍ كان يقوم بها كبقية من استغلوا هذه الحرب لأسباب شخصية، لكن ومع إصراري وضغطي على ياسر قام بالاتصال به وإعطائه بعض البيانات التي سيحتاجها أثناء بحثه.

وماهي إلا أيام قليلة حتى اتصل بي ياسر يطلب مني المجيء لبيته.

لم يكن ياسر على ما يرام، حتى حنين بدت كأنها تحمل جبلاً فوق ظهرها.

جلستُ و كأني أتعلم التنفس للتو، عيون ياسر كانت تتكلم وكُنت قد اعتدت على قراءتها وفهم لغتها، فطلبت منه إيصال الخبر الذي أتاهُ كما هو.

علمت يومها أن والدي تم اعتقاله من قِبل إحدى الكتائب المتواجدة في مدينتي بتهمة أنه عسكري سابق لدى النظام، وبسبب ما قاله يوم استشهاد أمي، وقد استشهد في معتقله بعد أيامٍ بسبب جروحه وسوء المعاملة.

قال أبي يوماً إن هذه الحرب كحوتٍ عملاق في وسط المحيط، ليس عليهِ سوى فتح فمه لالتهام مئات الأسماك دون أن يدري، ونحن مجرد أسماك صغيرة لا ندري لأي سبب سنموت.

أمي قتلها جيش بلدي الذي يدافع عنها ضد من قتلوا أبي، وأبي قتله الشعب الذي أنتفض ضد القتل والظلم، وأنا اعتقلت لأني رفضت الوقوف ضد من اعتقلني، والكثيرون نالوا حريتهم عندما وقفوا ضد الحريات.

علمت يومها أن أبي فاز بحربه الرابعة ضد قتلته وفاز بالجنة مع أمي ولم يحتمل غيابها لأكثر من ثلاث ليال.

الليل يأتي على أشكالٍ كثيرة، فيأتي أحياناً قصيراً وممتعا حين نكون عاشقين، ويأتي طويلاً ومملا حينما نكون بانتظار من عشقناهم، ويأتي أيضاً طويلاً ومتعبا على من سهر ليله بقرب من يحب، يحرس أنفاسه وقطرات عرق تصب من جبينه ،وقليلاً يأتي قصيراً ويرحل مسرعاً لمن أنهكه التعب، لكنه عندي أبى الرحيل، الليل عندي بألف عام، والشمس التي كنتُ أنتظر شروقها رحلت فوق سريري، أما القمر الذي كان يضيئ شيئاً من ليلي فقد انشق وأُطفِئ نوره، ولم يبق لي سوى جسداً اِكتمل بالخامسة والعشرين ومات بالسابعة والعشرين عاماً.

خرجتُ من منزل ياسر متجهاً لمنزلي والدموع تحرق وجنتي، لم أخرج وقتها من منزلي لثلاثة أيام، لم أتواصل مع أحد، علبة سجائري وقهوتي والكثير من الذكريات كنَّ جليساتي في تلك الليالي العجاف.

حتى جاءني ياسر وحنين مساء يوم ماطر مما اضطرني لفتح الباب لهما، ولأن شوقي لمجد قد بلغ ذروته.

لم يخرجني من جحيمي سواه، ذلك الملاك الصغير الذي كان كلما رآني تصغر

عيناه مبتسماً لي، كأنه يقول لي(مازال هناك ما نعيش لأجله).

حنين تعرف أنه نقطة ضعفي، أعطتني إياه وقالت أتى إليك برسالة افتحها، ورقة صغيرة قد حافظ عليها من المطر و الضياع.

فتحتها مبتسماً وزادت ابتسامتي حين قرأت محتواها، كلماتها كانت كفيلة بجعل ضحكتي تعود لموضعها، (عمو أنا أحبك... إذا تحبني اضحك...).

جلست مع ياسر نتبادل أطراف الحديث، وحنين كعادتها كلما يأتيان إليَّ تقوم بترتيب المنزل وغسل الأواني في المطبخ.

أعدت لنا القهوة بعد أن نام مجد وجلست معنا، وبدون أي مقدمات قالت لي: سارة أوصتني بالسلام عليك وإيصال تعازيها لك.

تابعت حديثها عن سارة بلهفة كأنها كانت تريد إيصال رسالة ما، لكني قاطعت حديثها وسألت ياسر عن فكرة السفر إلى أوروبا.

ياسر كان من رافضي فكرة الهجرة أما حنين *فكانت* متمسكة بهذه الفكرة وتطمح لتنفيذها من أجل تأمين حياة أفضل لمجد (على حد قولها)، فأجابني ياسر بسؤال، وأنت ما رأيك؟، أجبته والحيرة تعتليني، لا أعلم لكنها الوسيلة الوحيدة لهروبي مما أنا فيه.

سابقاً قد بدأت أعداد من الشباب بالهجرة عن طريق البحر، ومن بينهم الشباب الذين كانوا يسكنون معي، كان الأمر ليس بالسهل يحمل معه مخاطر الغرق والموت .

ولأننا واجهنا الموت بكل أشكاله كان لابد من تجربته غرقاً، لتكتمل أشكال الموت لدينا.

عادت الحياة لشكلها الطبيعي في بضعة أسابيع لاحقاً، طبيعة الحياة بالنسبة لي كانت تتجلى بكوب قهوة مع عدد من السجائر في غرفة ظلماء، لا أجد بجانبي سوى ذكرياتي وبعض أوراق دفتري القديم، والصور التي خرجت بها من محافظتي.

مع إمكانية خروجي لمسافات قصيرة بعد انتهاء عملي في المدرسة التي تم تعييني بها.

أما أثناء الدوام الرسمي فأجدني ذلك الانطوائي المنعزل عن كافة أشكال الحياة صدق من قال (من شب على شيء شاب عليه).

الانعزال بالنسبة لي كان المهرب الوحيد من صخب الحياة في تركيا.

كلاجئ عاثت الحياة بعلاقاته الاجتماعية ورمته صريعاً وحيداً، علاقتي بزملائي كانت تقتصر على الأمور المهنية فقط.

حتى بدأت اتهامات البعض تطرق مسامعي فقد أطلقوا عليّ (متوحد - مريض نفسي - متكبر وعنصري).

الأخيرة كانت بسبب علاقتي بياسر وحنين فقط وبحكم أنهم أبناء محافظتي فكان البعض ينعتني بهذه الصفة.

حتى تمكنت فرح من اجتياز القوقعة التي احتجزت نفسي بها.

فرح فتاة شابة مليئة بالحياة شخصيتها أُشتِقت من اسمها، لم تكن علاقتي بها بالبداية تتعدى الزمالة، حتى أتى ذلك اليوم الذي كُلِفتُ معها من قِبل المنظمة بعمل مشترك.

هو عبارة عن البحث عن أسباب انقطاع التلاميذ عن مدارسهم ومحاولة إرجاعهم عن طريق التحدث مع عائلاتهم بذلك، مما أعطى الفرصة لكلانا للتعمق أكثر بشخصية الآخر.

فرح كانت بنظري فتاة طائشة غير متزنة بتصرفاتها كفتاة، لكن ومع مرور الأيام تبين لي أنها فتاة ذكية منفتحة مندفعة للحياة، كما أنها اعترفت لي بتغيير نظرتها تجاهي، فمن معقد متكبر إلى شاب قوي كسرته الدنيا، شابٌ قضى طفولته انطوائياً منعزلاً فقاوم هذا الانعزال وتخلص منه ليصبح شاباً مندفعاً تملأه الحياة، لتعود الحياة مرة أخرى وتخذله وتعيده لما كان عليه ضعيف منعزل.

ومع مرور أيام قليلة تحولت فرح من زميلة إلى صديقة، وتمكنت من مساعدتي للنهوض والاستقامة من جديد.

ومع عبق ربيع عام 2014 كانت أعداد المهاجرين تزداد بسرعة

وبدأت العراقيل تنهار أمام آلاف المهاجرين إلى أوروبا مما أعطى ياسر الفرصة للتفكير بهذه الخطوة.

و مع محاولات حنين بإقناعه نجحت أخيراً، وبدأوا بتجهيز أنفسهم لتلك المغامرة.

فرح كانت قد أعطتني قراراً بالنسبة للهجرة، ولأنني لم أكن مهتماً بتلك الخطوة استطاعت إقناعي بسهولة بالابتعاد عنها نهائياً.

أوروبا لم تكن الجنة التي نتطلع لها دائما، بل هي جهنم بذاته، هكذا كانت

وجهة نظرها للهجرة بشكل عام، ورأيت ذلك جليّاً حين تحدثت مع حنين وياسر بأمر السفر محاولة إقناعهما بالرجوع عن هذه الفكرة، حين قالت لهما بكل غضب:

-اللجوء لأوروبا كذبة سيخلدها التاريخ...

نعم إنها كذبة قد أحيكت في منتهى الدقة، فبعد أن قام الشعب ليطالب بحرية اختيار طريق الحياة، وجد نفسه فجأة يطالب باختيار طريق الموت.

لكن محاولتها باءت بالفشل بعد أن عزم ياسر وحنين أمرهما وأنهيا جميع ارتباطاتهما وقررا السفر مع بداية العطلة الصيفية.

****

بيان الموت

لم يكن لدينا سوى الموت حليفاً، في الأمس القريب كان للموت اعتبار، كنا أياماً نتكلم بموت أحدهم، أما اليوم فقد أصبحت كلمة (مات) اعتيادية نسمعها كأي كلمة أخرى.

ومع كثرة الرايات المرفوعة في سماء سوريا، تعددت أشكال الموت، حتى من حالفه الحظ وخرج من سوريا ونجى من بين أنيابه، سيلاقيه إما غرقاً في عرض البحر، أو برصاص حرس الحدود أو يلقى نفسه قد بِيع أعضاءً بين غابات شرق أوروبا، ومن تكتب له النجاة من كل هذا سيجد نفسه مكبلاً بقيود الذل في مخيمات النزوح، أو صريع جوعٍ وعراء في سوريا، وبعضهم ينتهي بهم المطاف بإحدى طرق الانتحار بين أنياب الوحدة والعزلة الاجتماعية في أوروبا، فاختُصِرت الحياة بين شكلين، إما أن تتذوق طعم الموت بأحد أشكاله، أو إنك تتخلى عن مبادئك والقيم التي تربيت عليها لتنعم برغد الحياة .

وجدت نفسي وحيداً ألوح بيدي لوجوه أغرقها الدمع، أمسح دمعتي وقد اشتعلت حنجرتي وتجمعت بقايا روحي فيها، حين ركِب ياسر وحنين الحافلة التي سوف تقلهم لأزمير للسفر بعدها لأوروبا.

ومع دعواتٍ صادقة لملمتُ أجزائي وعدت منكسراً خاسراً أرتشف بقايا ذكرياتي في عتمة الأيام .

الوحدة لم تكن تجربة جديدة بالنسبة لي، لكن فراق من نحب ومضيّهم إلى المجهول يبعث في نفسنا الخوف والقلق وتعب الانتظار.

دخلت منزلي الذي بات قبراً صغيراً يضمني وحدي، مختبأً بين حنايا العتمة،

أقلب صفحات ذاكرتي، فأجدني تارة بين أحضان أمي طفلاً يردد بعض آيات القرآن الكريم، وتارة أجدني أمسك بيد والدي ليعلمني كيف أقطع الطريق لشراء بعض الحلوى من دكان الحج حسين، وتارة أجدني مستنداً لإحدى أشجار الكينا في ساحة المدرسة، أراقب ساره وتغيرات لون شعرها وعيونها بين الظل والشمس، وتارةً أجلس مع حاتم وياسر في مدرجات الجامعة نحاول فهم ما يقوله المحاضر، لتقذفني الذكريات لطاولة وشمعة و وردة مع سارة في إحدى اللقاءات، تلامس أصابعي أطراف أصابعها ونار الحب تحرق أنفاسنا، ومن جنة الحياة لجحيمها تحت أصوات رصاص البنادق وأسواط الجلادين في سجن صيدنايا، لأتذوق طعم الحرية من جديد بين أكوام حجارة وأرواح تُزهق هنا وهناك، ووجوه غيرتها الحرب وقلبت ملامح الطفولة فيها لتجاعيد الحياة.

دون أحد، جسد بلا روح، دون أب أو أم أو صديق أو حبيبة، أجدني في عتمة غرفتي من جديد، ليعيدني للحياة صوت رنة هاتفي.

نظرت بطرف عيني التي أغرقها الدمع لأجد رسالة لم تفتح.

فتحت هاتفي كانت رسالة عبر إحدى برامج المحادثة من رقم سوري تحمل كلمة (كيفك)، أجبته دون معرفتي من هو؛ لازلت أقاوم الحياة.

وماهي إلا دقائق قليلة حتى أتتني رسالة أخرى منه قال فيها،

اصبر لها، فلعل من خلق السماء يحلها.

كنت سابقاً أسمع هذه العبارة فقط من سارة، وهنا دون إرادتي

ضغطت على زر الاتصال، لكنه قُطع برسالة (لا أستطيع التحدث الآن).

فتركته وشأنه لأستيقظ في اليوم الثاني على صوت جرس الباب.

الساعة كانت قد تعدت الحادية عشر صباحاً، كيف نمت كل هذه الفترة لا أعلم.

فتحتُ الباب، ها هي فرح تقف بنظرتها الحادة وصوتها الغاضب – (نائم!!)، ابتعدت عن مدخل الباب وأشرت لها بيدي أن أدخلي.

نظرت إلي وابتسمت، يبدو أن منظري كان مضحكاً.

دمدمت بكلمات كأنها تدعو للصبر وسبقتني باتجاه الشارع الرئيسي لحين اللحاق بها.

جهزتُ نفسي وخرجت مسرعاً، ولم أشاهد محتوى الهاتف حتى عدت في المساء بعد أن اتصل بي ياسر ليطمئنني أنهم قد وصلوا أزمير بسلام.

فتحت هاتفي فوجدتُ رسالة وقد كتب فيها: يزن، هل أنت بخير؟ أنتظر اتصالك.

اتصلت به لكنه لم يرد على اتصالي فتركت له رسالة بسؤالي عن شخصه، وبعد قليل رد عليّ برسالة محتواها ...(سارة)

شُلَ تفكيري لثوان ثم اتصلت بياسر لأطمئن عنهم، وتجاهلت تماماً الرسالة وصاحبها.

قبل ساعات وأثناء جولتي مع فرح لإكمال المهمة التي كُلّفنا بها، كانت قد أكثرت الأسئلة وخاصة الشخصية منها، ومع أني كنت أتساءل بيني وبين نفسي لِمَ كل هذه الأسئلة لكني كنت مستمتعاً بها، لا أعرف، شيئاً ما كان يجذبني لفرح.

ويوماً بعد يوم أصبحت فرح من أولويات حياتي نخرج كثيراً، نتكلم كثيراً نسهر لساعات نتحدث عبر برنامج (سكايب) في أمور شتى.

في تلك الأيام كان ياسر وحنين ما يزالان في أزمير ينتظران دورهما في السفر، ولأن الله يخلق أسباباً لإبعادك عن أمر ما، كانت أخبار غرق بعض المهاجرين تتزايد في تلك الأيام فلم يخلُ يوماً إلا وسمعنا به عن نبأ غرق مركب أو اثنين، مما أدخل الخوف لقلب حنين قبل ياسر وكانوا يفكرون بالعودة وعدم الهجرة.

أرسلت إلي سارة عدة رسائل لم أجب على أحد منها وكنت أشغل نفسي وأصرف تفكيري عنها بالحديث مع فرح.

هناك كلمات تترك أثراً كبيراً في حياتك حتى لو تكررت بشكل دائم.

انتبه لنفسك..... اشتقت لك..... أحتاج لك..... لا تخف أنا بجانبك، هي كلمات روتينية ببعض الأحيان، لكن لها سحر خاص ينقل مزاجك من ضفة لأخرى.

مع بداية تموز قرر ياسر وحنين العودة بسبب المخاوف التي صادفوها بسفرهم هذا.

كأن الروح قد ارتدّت لي حين احتضنت مجداً، أحسست أنه قد اشتاق إلي كما اشتقت له أنا.

لحسن الحظ أن ياسر قبل أن يسافر ترك معي مفاتيح منزلهم، ولم يتصرف بالأثاث الموجود، وكانت الفكرة أن أسلم المنزل لأصحابه بعد سفرهم و وصولهم كأنه كان يعلم أنه سيعود.

ذهبت إليهم مساء وفي جوفي أسئلةً كثيرة لحنين تخص سارة والرسائل التي وصلتني منها.

قالت لي حنين وقتها: إنّ سارة طلبت رقم هاتفك للتواصل معك وطلبت مني ألّا أخبرك وبدأت بسرد أخبارها وتفاصيل حياتها.
لم يكن الأمر هاماً جداً بالنسبة لي، لكن الفضول وذكريات الحبيب الأول كانت كفيلة بإصغائي لحديث حنين.

(افتتحت حديثها بأسلوب يجر عطفي ويشد فضولي أكثر، تحدثت لي يومها عن ما لحق بسارة من ظلمٍ ومهانةٍ على يد والدة حسام وأخته، لم تكن أخت حسام راضية عن هذا الزواج مما جعلها مع سارة ضمن دائرة الخلاف اليومي، حتى حسام لم يكن ينصف سارة حين تشتكي له معاملة أهله لها، مما جعل دائرة الخلاف تطال سارة وحسام، وبدأت المشاكل بينهما على أتفه الأسباب، وهكذا حتى بدأت الثورة وبدأ حسام بالتأخر بسبب عمله كصحفي، أحياناً يبقى خارج المنزل لعدة أيام، حتى ولادة ابنتهما (قمر) لم يكّنُ له أي اعتبار عند حسام.
ولأن الدنيا ليست عادلة أخذت من سارة أخيها الذي بقي لها، لا تعلم عنه شيئاً منذ أكثر من سنة، استشهدت والدتها وأختها بنفس الغارة الجوية التي استشهدت بها والدتك، و والدها توفي قبل ذلك أثر سكتة قلبية، حصل كل هذا وأنت في المعتقل، لم تكن وحدك من يتجرع مرّ هذه الدنيا.
الثورة لم تبقِ على سعادة أحد، ولم تترك أحداً إلا وأشربته من نفس كأس الذل والخيبة.
الأن وبعد مضي أكثر من أربع سنوات على زواجها عادت وحيدةً مكسورة تحتاج أي شخص يطبطب على جراحها ويمد لها يد العطف والحنان، لم يبقَ لها سوانا وابنتها قمر ذات الثلاث سنوات.

حتى والدة حسام بعد أن أكل منها الزهايمر ما تبقى من عقلها، وضعها حسام بدار للعجزة بدمشق بعد أن تزوجت أخته ولم يبق أحد يرعاها.
في الفترة الأخيرة احتد الخلاف كثيراً بين حسام وسارة وقد هجر حسام المنزل ولا يأتي إليه أبداً، وقد تورط مؤخراً بتهم كثيرة أهمها التخابر بين طرفي النظام والمعارضة المسلحة، وتستطيع التأكد بذلك من مواقع شتى في الأنترنت.

سارة لم يبقَ لها سوانا وهي تريد الخروج من سوريا وعلينا مساعدتها.)
سمعت ما سمعت من حنين، نعم تأثرت لما سمعته من أخبارٍ عنها، لكني لم أتقبل فكرة الحديث معها بعد كل هذه السنين وبعد كل ما حصل بيننا.

ومع انتهاء العمل المشترك مع فرح وتقديم التقارير الخاصة بذلك، عاد الفراغ ليملأ حياتي.
حاولت تكوين بعض الصداقات لكن لم يكن بالأمر السهل، فأغلب الشباب يعملون بالمهن الحرة ولا يعودون لمنازلهم إلى ما بعد غروب الشمس، فلا يجدون وقتاً للزيارات أو الخروج للترفيه عن أنفسهم سوى يوم العطلة وذلك اليوم بالمطلق يكون لعائلاتهم وأبنائهم.
لم أكن من هواة السياسة ومتابعة أخبارها، لم يورثني أبي هذه الصفة، ولأننا في تركيا نفتقر للمكتبات العربية في تلك الأيام لم يكن أمامي سوى الأنترنت بمواقعه المختلفة لأقضي معهُ أغلب أوقاتي، أتصفح أحياناً وأقرأ الكتب في أغلب الأحيان.
وجدت راحتي النفسية مع فرح والتحدث إليها، وكانت علاقتي بها تزداد يوماً

بعد يوم لكني وفي كل مرة أتحدث بها مع فرح أشعر بأن شيئاً ما يختبئ وراء ابتسامتها الدائمة.

حاولت التوغل في أسرار حياتها لكني لم أخرج بنتيجة، كان شيئاً ما يمنعني من تطوير علاقتي مع فرح، وأيضا هناك ما يمنعني من عدم الحديث معها، كأني قد أدمنتها، فما إن تمضي ساعة دون التحدث معها، إلا وأجدني قد اشتقت للحديث معها.

الحياة هنا رغم توفر كل الاحتياجات إلا أنها مخيفة ومملة، السرير الذي أنام عليه يشبه بتكوينه سريري في بيتي، لكنه لا يمنع عني الكوابيس مثل ذلك السرير، حتى الأصدقاء والناس عامة هم نفسهم لكنهم لا يمنحوني الأمان والطمأنينة مثل ما كانوا في مدينتي، حتى الشوارع هنا تشبه بتكوينها شوارع مدينتي لكنها تخنق الأنفاس وتضيق لها الصدور، هذا الفضاء لا يمنحني الحرية الكافية للعيش، هذا الوطن آمن لكنه لا يمنحني الحياة.

حتى لو حاولت التأقلم مع من حولك سيبقى وسم الغريب يمنعك من تنوع خياراتك.

حاولت مسح الذكريات لكن في كل لحظة تمر يشتعل رأسي شوقاً، لتفوح منه رائحة سارة وترتسم كلمة "أحبك" بين عيوني.

وفي لحظة شرود وهروب من شمس تموز الجافة طُرق الباب.

فتحت الباب فإذا بفرح والدمعة تغلي في عيونها، نظرت إليها هرب الكلام مني.

كانت أول مرة تدخل فيها بيتي، ولم أعتد على وجود أنثى سوى حنين تدخل منزلي.

أغلقت الباب وفتحت النافذة المطلة على الشارع والنافذة الخلفية، لا أعلم لِمَ انتابني كل هذا الخوف من وجودها.

عندما جلست انفجرت بالبكاء كأنها كانت تريد الوصول لتفرغ ما في عيونها من حزن ودموع.

ذهبتُ لإعداد القهوة ولم أتفوه بأي حرف حتى هدأت قليلاً، أعطيتها كأس الماء وحاولت تهدئتها أكثر ببعض الكلمات، نظرت إلي، اعتذرت عن دخولها بهذا الشكل، وما إن افتتحت كلامها حتى صدمتني بقولها:

-(أحسدك على وضعك.... ليس لديك أب أو أم ولا تحمل همهم).

أصابني الجمود تلك اللحظة، لم أتخيل يوماً أن أُحسد لأني فاقدٌ للأهل، ولم أتوقع يوماً أن يكون الأب أو الأم سبباً في حمل الهموم، وأيضاً تقول لي لا تحمل هماً، وأنا فوق صدري جبالاً من الهم والحزن، يبدو أن الدنيا لم تعطِ أحداً الرضا الكامل بما لديه، وكلٌ منا يتطلع لما حوله ويتمناه له.

كنت أتمنى لو أن عندي إخوة وأب وأم، والآن تأتي من تملكهم وتحسدني أني أفقدهم، أي دنيا نعيشها؟

تركتها تفرغ ما في صدرها ولم أجاوب على أي من كلامها الذي كان بعضه جارحاً وموجعاً لي لكنها بالطبع لم تقصد ذلك.

أخبرتني وقتها أن أمها تريد العودة لسوريا، متمسكة برأيها بأن الثورة لا تعني لها شيئاً ولم يكن عليهم ترك منزلهم والهجرة من بلادهم، وبأن النظام لن يتعرض لهم بحكم أنهم مناصرين له، ويكفي ما خسروا من أموال وفقدان لابنهم الأكبر.

وفي المقابل والدها يرفض العودة متمسكاً بمبادئه وعدوانيته للحكومة ومناصرته للثوار الأحرار ولن يعود لسوريا إلا بسقوط النظام.

أما إخوتها الصغار فقد انقسموا بين مؤيد ومعارض يقلدون آباءهم دون فهم الأمر، ولم تقع في شباك هذه الفوضى سوى فرح التي على عاتقها حل المشاكل بين والديها بعد أن غرق أخاها في مياه البحر مهاجراً لأوروبا .

وقد احتد النقاش بينهم ظهيرة اليوم حتى توصل بهم الأمر للطلاق بعد زواج دام ٢٤ عاماً.

لم أكن على دراية كافية بتلك المواضيع فلم يسبق أن صادفني مثلها، لذا التزمت الصمت محاولاً امتصاص حالة الغضب التي أحلت بها.

في تلك الأثناء كان تفكيري يتأرجح بين عدة نقاط لكن أهمها وأكثر ما أفرح قلبي هو لجوؤها إليَّ دون الكثيرين.

تمنحنا الحياة أحياناً فرصةً جديدة لاسترجاع ما تهمش منا أو استبداله، لكن يبقى عندنا القلب، هو كبصمة الأصبع استحالة تبديله بشبيه.

حتى نفسي لم تعد ترغب بإعادة تجارب الحب، يبدو أن قلبي لم تشفى جراحه بعد.

ما أسرع الأيام عندما نكون بحاجتها، أو أن الله قد رفع البركة من الوقت حتى لم نعد نشعر به ابداً.

مع بداية خريف عام 2014 والعودة للمدارس، عاد الروتين نفسه ليملأ حياتي.

هاجرت والدة فرح إلى سوريا وتركت خلفها مسؤوليات وقعت على عاتق فرح، فإخوتها الصغار و والدها الذي يقضي يومه أمام شاشة التلفاز ينتظر

سقوط النظام، وأعمال المنزل ومراجعة دروس إخوتها بالإضافة لعملها، كل هذه الأسباب كانت تمنعني من التواصل معها.

أما في أوقات الدوام الرسمي فلم أكن أراها إلا لبضع دقائق لم تكن كافية لأي شيء، كان قلبي يسكن لصوتها وعيناي تشتاق لها.

كأنها بدأت تخترق جدران قلبي الصماء، لا أعلم...

كانت حنين وفي كل مرة ألقاها تعيد لي طلبها بأن أتواصل مع سارة وتعيد نفس الكلام بأن سارة بحاجتنا الآن، آهٍ... من يخبرها أني بأشد الحاجة إليها، لكنها لم تعاود الاتصال بي، والعقلُ يرفضُ أن يستجرهُ القلب، وقعت في شباك حيرتي من جديد، وبقي القلب والعقل في صراعٍ وكل منهما متمسك برأيه.

لم أكن أبداً من متابعي الأخبار، وكنت أعتمد بذلك على ياسر، كان يسمع الأخبار وينقلها لي دفعة واحدة في كل مرةٍ نجتمع فيها.

لكنه هذه المرة لم ينتظر قدومي إليهم.

الجو ماطرٌ في الخارج وبرد تشرين يجعل من دفء الفراش ملاذاً وحضناً كطفلٍ عاد لحضن أمهِ بعد يومه الدراسي الأول.

الساعة تعدت العاشرة مساء، تكاد الشوارع تخلو تماماً حتى أني لا أسمع صوت سيارة إلا بين الحين والحين.

طرق الباب بهدوء، نهضتُ من فراشي كأني أنزع روحي من جسدي، انتظرت قليلاً، عدّتُ لفراشي مجدداً فإذا بالباب يطرق ثانية لكنها كانت أقوى من سابقتها، نهضت وبخطوات خفيفة .

-من هناك...؟

-أنا ياسر.

ياسر !! ما الذي أتى به في هذا الوقت؟

فتحت له فإذا به محمر الوجه ينظر إلي والدمعة تحرق مقلتيه.

دخل المنزل وقد تفجرت براكين الدنيا في صدره.

حمل هاتفه وفتح إحدى المواقع الإخبارية وأعطاني إياه لأقرأ ما كتب فيها....

((وفي بيان لها قام التنظيم بتنفيذ حكم الإعدام لقائد كتيبة المنتصرون بالله مع عدد من معاونيه وعناصر تابعة للكتيبة، بتهمة محاربة التنظيم والارتداد عن دين الله، وقد تم تنفيذ الحكم ظهيرة هذا اليوم في الساحة العامة لمدينة دير الزور المحررة)).

-حاتم.؟؟!!!

يالله ....

يالله....

حاتم لم يكن الوحيد الذي تمت محاكمته بتهم لا وجود لها، فكل من يقول " لا "في وجه هذا التنظيم سيتم إعدامه، لقد انتقوا لسيوفهم الخيرة من الناس من بينهم علماء في مختلف العلوم وأطباء ومهندسين، حتى شيوخ الدين قد اتهموهم بالردة وتم إعدامهم على إثر ذلك، وسيمضي الزمان وتُنسى اسماء من صنع هذا التنظيم ويُنسى هو ذاته، ويبقى أسم حاتم ومن معه شاهدٌ حيٌّ على ما ارتكبته هذه الحرب من مآسي وأحزان.

خبر الموت يأتي مؤلماً لكنه لا يؤلم من مات آلاف المرات.

خبر موت حاتم كان مؤلماً لنا، وخاصةً على ياسر فقد كانا أصدقاء طفولة ورفقة حيٍّ واحد.

أما بالنسبة لي، موت حاتم كان هو الحل الأمثل لإنهاء تفكيري بالأحداث التي حصلت.

حاتم كان وحدهُ حين شتم أبي الكتائب، واتهمهم بإشعال الفتنة والحرب، أما الأوراق والوثائق الخاصة بعائلتي فلماذا كانت معهُ وكيف حصل عليها، وكيف وجدها في منزلنا وقد سَرقَ وحُرق كيف وقد كانت هذه الأوراق في خزانة أبي الخاصة، والخزانة بحد ذاتها لم تكن موجودة، لماذا الجميع لا يعلم شيئا عن أبي سواه، لماذا لم يسمع أحد بذلك الخلاف الذي حصل مع الكتائب سوى قريب ياسر الذي هو صديق حاتم ومعه في كل خطوة، أسئلة كثيرة كانت تطرق رأسي لكني كنتُ أجبن من أن أُجيب على أحدٍ منها.

اعتزل ياسر الحياة بعد موت حاتم وضاقت به الدنيا كثيراً.

في هذه الأثناء كانت حنين تريد الخروج بزوجها من هذه المحنة التي أصابتهم، وكانت ما تزال تفكر بالهجرة مما سهل عليها إقناع ياسر مرة أخرى بذلك، لكن هذه المرة كانت عن طريق الهجرة الشرعية إلى أوروبا عن طريق منظمة الأمم المتحدة.

دخلت علينا سنة 2015 تحمل في طياتها مواقف كثيرة، دموع كثيرة، أوجاع شتى والقليل من الفرح.

****

النهاية

" أن تأتي متأخراً خيرٌ من أن لا تأتي.."

لا أدري كيف سُمح لعبارة كهذه أن تتجول في طرق حياتنا.

التأخر لا يقطع الأمل فقط، بل يُقطّع أجزاءنا وما بقي من أشلائنا.

كيف لمجيءٍ متأخر أن يعيد النبض لقلب اِسْودَّ و تقطّع آلاف المرات ؟

اتصلت بي حنين تطلب مني المساعدة للوقوف بجانب سارة وابنتها قمر التي لم تكمل بعد الأربع سنوات، والتي لم يبق لها في هذه الدنيا سوى أمها ونحن، بعد أن هاجر زوجها حسام وأخذ معه جميع أموالهم لجهة غير معروفة، فقد تم كشف تخابره مع العناصر المسلحة وفضح أمره أمام النظام، ومن جهة أخرى اتهام الثوار له بالعمالة والخيانة.

في المساء وصلتني رسالة من سارة تريد التحدث معي، ترددت كثيراً بالجواب، لكني لم أقاوم نفسي حينها، وما إن سمعت صوتها حتى غرقت عيني بالدموع.

صوتها أعادني لزمن أشتاق إليه، أعادني لأحبة تشتاق لهم عيني.

أعادني لمقاعد الدراسة وشجر الكينا وأشياء جميلة لا أجدها هنا.

تبادلنا الدموع أكثر من التحيةِ والكلام.

افتقدتُ سارة القوية في ذلك الاتصال، لم تكن هي، كانت كتلة من كسرٍ وخذلانٍ، أمور تكلمت بها دموعها قبل أن يتكلم لسانها، الوجع الذي أصابني يومها كان شبيهاً بالوجع الذي شعرت به يوم خُذل أبي وعاد منكسراً من عند والدها، لملمت دموعي وأنهيت اتصالي معها، وجلست أستذكر أياماً أعادتني

إليها تلك الكلمات.

فأضحك تارةً وأبكي تارةً وأغضب منها في مواضع كثيرة.

جلست مع فرح في اليوم الثاني، يبدو أن التوتر قد ارتسم على ملامح وجهي، والتعب والأرق قد بان في عيوني، مما دفع فرح للاستفسار عن السبب.

لم أكن قد تحدثتُ سابقاً لفرح أو غيرها عن حياتي الخاصة، لكن هذه المرة كنت بحاجة لشخص ينصحني ويشد بيدي ويرشدني للطريق الصواب، قصصت لفرح اختصار حياتي مع سارة وبينت لها ما آلت إليه حالتها.

نظرت إلي كطبيب يحدق بعيون مريضه، وكأن بين يديها مسكناً يعطيني سكينة نوم طفلٍ لم يحمل هماً من دنياه سوى المحافظة على ألعابه من الضياع، يومها ابتسمت وقالت لي :

الحب لا يُعاد ولا يتجزأ.

الحب يا يزن نوعان الأول كزجاجة رقيقة تتأثر بأي خدش وتكسرها أضعف الضربات، والثاني كجبل لا تحركه العواصف مهما اشتدت ولا يتأثر بشيء، كان عليك أن تختار أي حبٍ تريد.

لا أنكر أني توقفت قليلاً عند كلام فرح، وبقيت أنظر بعيونها، وددت لو أني أدخل عقلها لأفهم ما كانت تقصده.

كانت فرح قد أنتها رسالة ابتسمت لها عيناها، ثم ضحكت وأغلقت هاتفها وبابتسامة قالت لي:

تعرفتُ عليه منذ فترة قصيرة، شاب طيب محترم أعتقد أن شيئاً جميلاً سيجمعنا.

حاولت إخفاء ما اعتلى وجهي من صدمة و ما توقف في عنقي من حروف، لكن تلعثمي كان واضحاً وأحاسيسي كانت فاضحة، مما أجبرني على تغيير مسار حديثي إلى الدروس والطلاب، حتى يتهيأ لي الفرار من حيرتي وتلعثمي.

لم أكن قد وقعت بحب فرح بعد، لكن كلماتها عن ذلك الشاب كان لها وقعاً في قلبي .

يجعلنا الحب نغير من وجهات النظر في أمورٍ شتى.

تساءلت في نفسي لو كان والدي رحمه الله على قيد الحياة لكان رمى وراء ظهره ما قد سبق وسارع لمساعدة سارة بأي شكل، هي بالنهاية ابنة حيّنا الذي تربينا فيه سويةً.

لاحقاً بدأنا أنا وسارة بالتحدث أكثر، لم يكن لديها خيارات كثيرة بعد أن خسرت هي الأخرى عائلتها وفرار زوجها وانقطاع أخباره.

كان أمامها إما انتظار خبر من حسام أو السفر والمجيء لتركيا.

كانت ترغب بانتظار خبر ما تزفه لها الأيام، لعل زوجها يعقل ويتذكر أن له زوجة وابنة لكن الأيام تجري بسرعة، والدنيا تضيق على سارة فلا معيل لها في ظل الغلاء الفاحش الذي اجتاح البلاد.

حتى إنها لم تكن قادرة على العمل بسبب قلته من ناحية وصغر سن ابنتها من ناحية أخرى.

ومع اقتراب فصل الصيف كان قرارها بالسفر خيارها الوحيد بعد أن فقدت الأمل من زوجها وازدادت أوضاعها المادية سوءاً.

في هذه الأثناء كان طلب الهجرة الخاص بياسر وحنين قد تمت الموافقة عليه

ولم يتبقى سوى المقابلة الأخيرة أمامهم والسفر.

تحدثت مع إدارة المنظمة التي كنت أعمل بها كمتطوع من أجل سارة.

كان المدير متعاوناً معي بشدة وقد استطعنا إخراج أوراقاً رسمية لسارة على أنها متطوعة في نفس المنظمة في الداخل السوري مما يسهل علينا إدخالها لتركيا دون التعرض لأي مخاطرة.

واستطعت إخراج أوراق رسمية لي، تعني بتكليفي بمهمة في الداخل السوري لأتمكن من لقاء سارة واصطحابها لداخل تركيا.

تمنحنا الدنيا أحياناً فرصةً تأتينا على طبق من ذهب، لكنها بالمقابل تأخذ منا أصحاباً كانوا دوماً قطعاً من القلب.

لحظة وداعي لياسر وحنين والصغير مجد لا أنساها ما حييت، في مطار ولاية أضنه التركية كانت آخر مرة رأيتهم فيها.

في الساعة الثالثة بعد منتصف الليل وقبل موعد الطائرة بنصف ساعة، جاءنا صوت الميكرفونات معلناً لحظة الفراق، لا أعلم إن كان الأبدي.

قبل ساعاتٍ من ذلك الوقت وأثناء سفرنا لأضنة أمسكت حنين يدي لأول مرة في حياتها وضمت عليها بشدّة ونظرت في عيوني وقالت:

-مازالت لديك الفرصة الكافية لتحقيق حلمك مع سارة.

سارة لم يبقَ لها في هذه الدنيا سواك، وأنت لم يبقَ لك سواها، لا تدري لعل الأيام قد منحتكم فرصةً أُخرى فلا تضيعها من يدك.

سارة لم تنساك يوماً وأنا واثقة أنك لم تنسها في يومٍ من الأيام، لذا اعمل على تحقيق الحلم الذي تربيت عليه وتذكر أنك أعطيت سارة وعداً بأن يكون حبها عندك وحيداً كوحدانية الله، وأنك قد تربيت عليه كما تربيت على حب الله، لاتدع ما فات يفسد ما سيأتي، سارة أمانة في عنقك هي هكذا تريد.

سحبت يدها من يدي لكنها وضعت في قلبي قوة لم أشعر بها من قبل.

يجب علينا دوماً احترام أحلامنا والسعي لتحقيقها رغم كل الظروف، حتى لو اضطررنا لاستئصال بعض من مبادئنا بهدف الوصول للحلم.

خرجت سارة من بيتها في دمشق مع ابنتها قمر في صباح يوم الإثنين السادس من تموز لعام 2015.

متجهةً للحدود الشمالية في الريف الشمالي لمحافظة حلب، لكن لسوء الأوضاع في تلك الفترة استغرق الطريق معهم حتى وصلوا محافظة حلب خمس عشرة ساعة بعد أن كان الطريق يستغرق أربع ساعات فقط، مما أجبرها على المبيت في حلب حتى يحين الصباح.

خرجت من منزلي متجهاً للمعبر الحدودي التركي وصلت هناك قبل الظهيرة مما يسر علي العبور للأراضي السورية.

ها أنا من جديد أُقبل تراب وطني وأشم رائحة الياسمين بين نسماته.

لكن الدم والبارود كانت لهما رائحة أقوى، وأصوات المدافع والصواريخ كانت أقوى من أصوات المآذن وأجراس الكنائس.

وصلت لمدينة الباب تلك المدينة التي احتوت آلاف النازحين والمهجرين والتي تحولت في هذه الحرب اللعينة لمدينة تضم المئات من تجار الموت والأزمات.

حاولت الاتصال بسارة مراراً لكن دون جدوى، لعدم توفر شبكات الهواتف المحمولة السورية، كان أغلب الناس يعتمدون في اتصالاتهم على الأنترنت الفضائي كما يسمونه.

انتظرت لساعات في الكراج الرئيسي للمدينة، وفي كل دقيقة أحمل هاتفي أنظر إليه لأتأكد من وصول أي رسائل.

القلق يربط يداي والتوتر شل عزيمتي والتفكير بأمور كثيرة أتعب رأسي.

شربت الكثير من القهوة لكنها لم تأتي بأي مفعول.

البن لم يعد ينفع بحالتي هذه، لا ينفعني سوى نظرة من عيون سارة.

بدأت الشمس بالغياب ولم تأتي، سألت الكثير من الفنادق المجاورة.

فتشت جميع الطرقات دون جدوى.

تجولت في شوارع المدينة ليلاً، كأنها لم تُسكن بعد، خاوية من أي مظاهر سوى المظاهر المسلحة، لم أدخل في شارع من شوارعها إلا ورأيت عشرات المسلحين، والكثير من الحواجز الأمنية العائدة لفصائل عدّة.

في أي حالٍ غدوت يا بلدي، لأي حال آلت إليه بلد الياسمين.

كيف استطاعت الأيام تغيير النفوس، كيف استطاعوا تبديل رائحة الورد برائحة الموت، من يعيد بناء أكوام الحجارة هذه.

لكن الأيام ستمضي وستُزهرُ قبور الشهداء في الحدائق معيدة لها رونقها السابق، وتعود رائحة الورد في يوم ما، معلنةً انتصارها على البارود والدم، وتزول هذه الغمامة وتعيد النور إلى عقول الناس وقلوبهم.

وجدت لنفسي ذلك اليوم سريراً في أحد الفنادق، غرفة مشتركة تضمني مع

ثلاثة شبان كانوا ينتظرون أحد تجار البشر لتهريبهم لتركيا، لم أنم ذلك الليل لم يتبقَ لدي من الصبر ما يكفيني حتى تشرق الشمس، ولأن الليل مهما طال ستشرق شمس الصباح، فإنهم أيًّ كانت أفعالهم لن يستطيعوا منع الشمس من الشروق مجدداً، ومهما كثرت القيود المفروضة علينا لن تمنعنا من الحلم والتحليق بين أمانينا حتى تتحقق يوماً ما.

جلست في مقهى قريب لشرب بعض القهوة وتأمل بعض الذكريات والأماني القادمة، أتهيئ للقاء سارة من جديد، وفي غفلة من نفسي رن هاتفي ليعيدني لمكاني .

كان الأستاذ عطية مدير المنظمة التي أتبع لها، ليخبرني برفض طلبه من الحكومة التركية وإبطال المهمة الموكلة إلينا.

وهكذا أصبح علينا الدخول عن طريق أحد تجار البشر كباقي البشر

هكذا بكل بساطة، الدنيا دوماً تعطينا عكس ما نريد.

مشاعر الإنسان هشة، ممكن أن تتغير بأي لحظة، كلمة... نظرة... موقف معين... نسمة هواء عابرة.

كنت أنتظر سارة بفارغ الصبر وأنظر لتجار البشر باستحقار بسبب استغلالهم ظروف الناس، فجأة وخلال أقل من دقيقة أصبحت أبحث عن أحد هؤلاء التجار بشغف وألوي إليهم طرف اللسان حتى لا أقع تحت رحمة أو غضب أحدهم، هي دوماً هكذا.

اتفقت مع أحد المهربين، لم تكن هناك رحلات يومية، كانت تتوفر الرحلة حسب شروط الطريق ودوريات الدرك التركي الموجودة، فمن الممكن عبور

الحدود في اليوم نفسه، أو أن تنتظر عشرة أيام حتى يتسنى لك العبور.

مرت الساعات ولم أتلقى أي خبرٍ من سارة، كان خوفي عليها وتوتري يتزايد في كل لحظة تمر عليّ.

انتهيت من صلاة العصر... جلست في المسجد أتأمل كلمة الله.

لم يكن سواه معي ولم يكن لي سواه، تحدثت معه طويلاً، دعوته حتى ارتاح صدري، لم أطلب منه إلا الخير في أمري ولإعطائي القوة لحظة لقائي بسارة.

رن هاتفي مجدداً قاطعاً خلوتي مع الله.

كان رقماً غريباً لإحدى الدول الغربية، ظننته ياسر في بداية الأمر .

- ألو...

-يزن... أنا سارة..

ما أجمله من اسم وما أرقه من صوت.

- سارة ... أين أنتِ ؟ اشتقت لكِ... لم أتقصد هذه الكلمة نطقها قلبي قبل لساني.

سكتت لثوانٍ ثم قالت:

-أنا في كراج مدينة الباب، هل وصلت؟

أجبتها بعد أن جمعت حروفي المتطايرة، انتظريني دقيقة واحدة وسأكون عندك.

الشلل أصاب أطرافي لم أقوَ على النهوض تلك اللحظة، حملت أغراضي وانطلقت باتجاه الكراج لم تكن خطواتي اعتيادية، كانت روحي هي التي تسير، قلبي كاد أن يخرج من صدري ويسبقني إليها.

تغيرت ملامح وجهها كثيراً، حدائق الجوري قد ذبلت فوق وجنتيها، لم تعد عيناها تحكي قصة خالقٍ بل أصبحت تحكي مرارة الحرب وقهر الحبيب.
خمائل شعرها الحريري قد ألتفت واختبأت تحت قطعة حريريةٍ بعثت النور في وجهها الملائكي، تقف كشمسٍ صامدة لم يتعبها الشروق والغروب.
تقدمت إليها بخطواتٍ قصيرة.
كانت تنظر إلي بابتسامة تخفي دمعة أنهكها الصبر والانتظار.
وددت لو أعانقها ... أصفعها... أقبلها... أضمها لصدري المتعب أو أبكي على صدرها كطفلٍ أضاع لعبته.
قمر.... ما أجملها من قمر، تحمل في وجهها براءة أمها وتخبئ خلف طياته قسوة الحياة، تمسك بيد أمها، تتلفت يميناً ويساراً، لا أعلم عن ماذا كانت تبحث.
زمانٌ أعاد نفسه بعد سنين عشر، أقف أمامها، التوتر يعتليني مجدداً، هل عاد يزن الضعيف ليقف مكاني هذه المرة؟
دقيقة صمت اجتاحت أفواهنا وارتفع صوت القلب معاتباً من يحب، ست سنواتٍ لم تكن كفيلة بنسف ثمانية عشر عاماً من الحب المتواصل، لم أكن أعلم أن نظرة منها ستلغي قراري باعتزالها الأبدي.
حملت قمر ذات السنين الأربع بين ذراعي كأني أحمل روحي التي فرت مني منذ زمن.

جلسنا متقابلين على طاولة صغيرة في إحدى المقاهي العامة.
شرحت لها ما حصل مع مديري في المنظمة وأن علينا قطع الحدود بطريقة

غير شرعية عن طريق أحد المهربين، وأن الأمور إن شالله ستكون على ما يرام.

وماهي إلا دقائق حتى تلقيت اتصالاً من الرجل الذي اتفقت معه، أخبرني أن العدد اكتمل وعلينا التجمع في منزله مساء، ثم التحرك فجراً لقطع الحدود .

اتجهت مع سارة وقمر للمنزل الذي وصفه لي مسبقاً، كان منزلاً أشبه بالملجأ، أربع غرفٍ ضمت ست عائلات.

الوضع هنا أصعب مما تخيلت ويصعب علي الجلوس بينهم، صوت بكاء الأطفال وكثرة النسوة وضيق المكان، مما اضطرني مع بقية الرجال للجلوس بالخارج.

الجو رائع والشمس انحرفت وبدأت بالمغيب والأشجار تحيطنا من كل جانب، لكن الجلوس مع سارة في هذه الأثناء كان الأجمل.

قمر هي المستفيدة الوحيدة بيننا، يبدو أن وقتاً طويلاً مر عليها دون اللعب والمرح مع الصبيان.

انتظرنا حتى أنتصف الليل، كانت قمر قد نامت بين أحضان سارة حتى هيئتُ لها مكاناً تنام فيه.

وقفت مع سارة بشرفة المنزل نتأمل السماء الواسعة، كانت الدمعة تسكن عين سارة منذ أن رأيتها، لكنها لم تتغير، تبتسم رغم آلاف الدموع المتزاحمة.

نظرت إليها ... لم أراها سارة القوية المفعمة بالحياة، كانت ضعيفة منكسرة خائفة.

تحدثنا طويلاً، بكينا طويلاً، حدثتها عن كل شيء، كنت مشتاقاً للحديث معها.

أما هي فكانت صامتة معظم الوقت لا تتكلم إلا للجواب على أسئلتي أو مع قمر.

في الثالثة صباحاً جاء المهرب وبصحبته سيارتين، جهزنا أنفسنا وفي تمام الرابعة ركبنا السيارة باتجاه الحدود التركية.

في الطريق أخرجت سارة أوراقاً ثبوتية لها ولقمر وبعض الأوراق الهامة ومبلغاً من المال ليس بقليل وأعطتني إياه للحفاظ عليه.

وأوصتني بقمر حين نبدأ بعبور الحدود.

وصلنا لنقطة البداية، نزلنا من السيارة وبدأنا بالتقدم تارة، والاختباء تارة، حتى وصلنا للجدار الفاصل بين الدولتين.

تقدم بعض الشباب وعبروا أمامنا، لكن الرصاص التركي كان حائلاً بينهم وبين العبور.

مما أجبرنا على التراجع وتأجيل الأمر لليوم الثاني.

عدنا للمنزل ذاته مع شروق الشمس، كان التعب والإرهاق قد نال منا جميعاً.

قبل خلودنا للنوم أوقفتني سارة وقالت لي :

-خائفة...

-لماذا؟؟

- لا أدري، لكن الخوف قد سكن قلبي، وأخذت قمر وضمتها لصدرها مما جعلني أشعر بالتوتر والخوف.

حاولت تهدئتها وإجبارها على النوم، لكنها تلك الليلة اكتفت بالبكاء المتواصل ولم تنم للحظة واحدة.

خرجنا في الظهيرة لتناول الطعام، قمر لم تكن قد اعتادت علي لكنني أخذتها

للحديقة ولعبتُ معها كي أكسر حاجز الخوف بيني وبينها.

كانت سارة تجلس علي الكرسي المقابل لنا، تنظر إلينا بعيونٍ أغرقها الدمع.

حاولت فهم ما يحصل معها لكنها لم تجبني بشيء مفيد سوى إنها تبكي على ما آلت إليه حالتهما هي وقمر.

عاودنا الكرّة في الليل، لكننا هذه المرة لم نستطع الوصول للحدود وتراجعنا عندما أتى اتصال للمهرب بأن الدوريات تملأ الحدود.

تلك الليلة خلدت سارة للنوم، نامت بعمق شديد، كأنها لم تنم منذ زمن، أما قمر فلم تنم يومها وبقيت معها حتى الصباح.

كانت من أجمل الليالي، تحدثت مع ذلك الملاك عن كل شيء، كانت سارة بصورة صغيرة، حتى غلبها النوم في التاسعة صباحاً فنمت بجانبها لبضع ساعات.

أفزعنا صوت قذيفة نزلت بالقرب منا وتلاها صوت رشقات رصاص، طلبوا منا التوجه للبساتين المجاورة لكي لا يصيبنا مكروه.

حاولتُ جاهداً تهدئة قمر هذه المرة بمساعدة سارة، لم تكن قمر قد اعتادت على هذه الأصوات.

نظرت إلي والدموع تحفر خديها الصغيرين وقالت بصوتها الملائكي:

أريد اللعب في الحديقة، أجبتها والضحكة تملأ وجهي: هيا يا أجمل البنات.

حملتها بين ذراعي وذهبت برفقتها مع سارة للحديقة المجاورة.

كان الناس قد عادوا لأشغالهم وانقطع صوت الرصاص.

قبل أن ندخل للحديقة أمسكت سارة بيدي وضغطت عليها بقوة وقالت لي:

بين الأوراق التي أعطيتك إياها، يوجد رقم هاتف مصري، هذا لأخت حسام إذ أجبرتَ على شيء أخبرها، لكن أستحلفك بالله أن تبقي قمر عندك، قمر أمانة في عنقك.

شعرت للحظة أن الجمود قد شل حركتي، أفلتُّ قمر من يدي واستدرت لسارة وقلت لها معاتباً:

كيف خطر لكِ أن تتحدثي بتلك الكلمات، سنصل لتركيا سويةً، وستكبر قمر بين يديكِ، ولا أريد سماع غير ذلك.

أمت برأسها مع ابتسامة خفيفة وقالت اذهب لقمر فأنها تنتظرك.

نظراتها إلي وإلى قمر لم تكن نظرات اعتيادية، لم أشعر بالخوف قط في حياتي كما كنت تلك اللحظة.

انفجرت في قلبي قبل أن تصل الأرض، قذيفة هوت لم تترك للوداع كلمات، لم يعطوني الوقت الكافي لوداعها، للنظر لعينيها، لحفظ ابتسامتها، لم يستطيعوا قتلي في المرتين السابقتين، لكنهم هذا المرة قطّعوني أمام عينيّ، مزقوا روحي قبل خروجها من جسدي، نثروا الياسمين ليملأ أرجاء البلاد وقالوا قد هاجر، أيهاجر الياسمين؟

بقايا الروح التي تنبض في قلبي أخذوها، مسحوا أثار الابتسامة عن شفاهنا، دنسوا بهمجيتهم أطهر ما خلق الله وما صنع، عاثت همجيتهم بعفوية حياتنا حتى لم يبقَ للحياة عنوان إلا الطغيان.

حملت قمر بين ذراعي وركضت بها متجهاً خلف شجرة احتميت بها محاولاً السيطرة على أعصابي، قمر هذه المرة لم تبكِ لكنها كانت تصرخ :

ماما...ماما

تدخلت فرق الطوارئ دقائق ذعرٍ لم يسلم منها أحد.

حملتُ قمر وركضتُ أبحث عن سارة بين أشلاء الأطفال.

وجدتها في مكانها لكن الدماء والغبار غطت معالم وجهها .

صرخت لأحد المنقذين، فهي على قيد الحياة تنظر إلي والابتسامة تملأ وجهها، أمسكت سارة يد قمر، قبلتها، ومسحت دمعتها وقالت لها: لا تخافي.. أنا بخير.

حملتها مع المنقذ وركبنا سيارة الإسعاف بتجاه المشفى، أدخلوها لغرفة العمليات وبقيت خارجاً مع قمر، تلك الطفلة التي كانت أقوى منا جميعاً.

مع مرور نصف ساعة تقريباً أخرجوا سارة للغرفة المجاورة، سألت الطبيب عن حالتها فسألني عن صلتة القرابة التي تجمعني بها.

أجبته بأختي...

قال لي أحضر أوراقها الرسمية والحق بي حتى تأتي سيارة الإسعاف، سننقلها لتركيا اليوم.

مع غروب ذلك اليوم كنا قد وصلنا المشفى العام في ولاية أنطاكيا التركية.

الفضل لا أنساه لمديري بالمنظمة فلولاه لما كانوا سمحوا لي بالدخول معها بسبب عدم إثبات القرابة بيننا، لكن وجود قمر وعدم وجود أحد معها سهل عليّ الأمر أيضاً.

في المساء بدأت قمر بالبكاء تريد أمها، لكن محاولاتي بتهدئتها لم تخيب وساعدني بذلك وجود محل بيع ألعاب داخل المستشفى.

بقينا هناك ثلاثة أيام لم يسمحوا لاحد بالدخول إليها.

البرد أكل قلبي ونحن في منتصف تموز، لم يكن برداً عادياً كان أشبه بثلج تجمع في قلبي، ثلاث أيام لم أعرف النوم فيها، لم أتناول أي شيء سوى الماء وبعض اللقيمات التي أجبر نفسي عليها حتى تأكل قمر معي.

قتلوني مراراً، لكن هذه المرة لم يكن قتلاً عادياً، كان تقطيعاً لروحي.
في صباح اليوم الرابع جاءني الطبيب المختص وبرفقته مترجم وقال لي بكل وضوح أن حالتها الصحية غير مستقرة، وهي الآن بأشد الحاجة للدعاء.
لم يكسر ظهري بعد موت أبي سوى دموع قمر التي تعلمت من الناس في المستشفى بعض كلمات من الدعاء (يارب اِشفي ماما).
كانت ترددها دائما وبعد كل مرة تلتفت إلي وتقول أمي لا تنم كل هذا الوقت لعل الطبيب لا يعرف ذلك، قل للطبيب أن أمي لا تنم كل هذه المدة، قل للطبيب أن يوقظها.

فأرد عليها بكلماتٍ لا تصبرني ولست مقتنعاً بها ولا أدري لعلها تُصبرها، وأردد معها الدعاء (يارب اشفي ماما).
ومع حلول الظهيرة جاءني الدكتور وأخبرني أن سارة تريد مقابلتي.
دخلت الغرفة البيضاء والخوف والتوتر يملأ أركاني.

كانت ترتدي ثوباً أبيض أشبه بثوب عروس، ضممتها إلى صدري دون شعور، لا أدري كيف امتدت يديّ لتعانق جسدها المدمّى، الروح عانقت روحها.
نظرت إلي بطرف عينها ...ابتسمت ودمدمت ببعض الكلمات لم أفهم منها شيئاً، ابتسمت وقلت لها لا عليكِ لا تتكلمي كل شيء على ما يرام.

ابتسمت ثانية وقالت: أين قمر؟

سألت الطبيب إن كان بإمكاني إدخال قمر لرؤية أمها، وافق لدقيقة فقط، أدخلت قمر لسارة نظرت إليها وابتسمت أحسست حينها أن لحظة الوداع قد حانت.

أخذت بيدي وآخر كلماتها كانت.... يزن قمر أمانة برقبتك.

رحلت وتركت خلفها جرحاً لن يشفى أبداً، لا يكفيني عمري لأنساكِ لحظة ،لا أدري بمَ أعزي نفسي، يا ترى إن خرجت من هذا العالم هل سألتقي بك؟، يا لهذا العالم، ويا لهذه الدنيا، لحظات وانقطعت كل صلة لك بهذا العالم .

أعلم بأنّكِ لن تكلميني، أعلم أنّكِ لن تعودي، لكني أتمنى من كل قلبي أن تعود اللحظات ولو لساعة فقط، لدقائق، لثوانٍ قليلة، لأقول لكِ كم أشتاق إليكِ، لأقول لكِ كم أنا بحاجتكِ، لأقول لكِ أني أحبكِ وإني لن أنساكِ ، وإني... وإني ... وإني إلى أن تسامحيني.

أحياناً يكون الحزن جميل لأنه يجعلنا أقوى ونتعلم من تجاربنا وأخطائنا، بحيث نصبح أكثر وعياً وقوةً، لكن موت سارة كسرني وحمّلني مالا طاقة لي به.

كانت بالأمس معي، تجلس بالقرب مني، تبكي بابتسامة خفية وتضحك بدموعٍ تملأ مقلتيها.

ماذا أقول لقمر الآن...؟

ماذا أقول لها حين تكبر، لم أستطع الحفاظ عليها في كل مرة أكون معها.

ماذا أفعل؟ ماذا أقول لحنين التي أوصتني بها فلم أفعل شيئاً سوى أني دفنتها بيداي؟؟

مع غروب شمس يوم الثلاثاء الرابع عشر من تموز لعام 2015

غربت شمس سارة عن دنيانا، وجهها لن يرحل عن ذاكرتي لحظة.

سارة لم ترحل وحدها، اقتلعت قلبي من جذوره حين أغمضت عينيها.

وما زالت قمر تقتلع ما تبقى منه في كل مرة تسألني فيها.

- عمو يزن وين ماما ؟؟؟

*** *** *** ***

النهاية

قمر

عندما وقع نظرها
عليّ أحسست أني
ارتكب أكبر الجرائم
وأنها فرصتي الأخيرة
للهروب ، لكنها أسرتني
عندما ابتسمت فانهارت قواي
كأنها انتصرت عليّ بأول قضية
تترافع فيها ضدي .
_ يزن ؟؟
صمت صعق أعماق أعماقي كأنني لم اتعلم
النطق بعد تركز الدم للحظة في مكانه
وبدأ الادرنالين عمله ، اختلط الشهيق لدي بالزفير
ولم يعد هناك هواء يكفيني
متر واحد يفصلني عن سارة .

ببلومانيا
ببلومانيا للنشر والتوزيع
biblimania.eg
https://bibliomaniapublishing.com